محمد الشيباني

الشَّر يتحدث

Telegram:@mbooks90

kalemat

الشر يتحدث

محمد الشيباني

دار كلمات للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

ردمك: 978-9921-809-17-6

٢٧٠٧٣٦٨٢٣٧

مقدمة

في بداية هذا الكتاب، أرغب في أن أقدم نفسي لكم -أحبائي القراء- ببساطة وصدق دون أي تصنع أو رسمية، وأرجو أن تشعروا بقربي منكم وصداقتي معكم لأنني في هذا الكتاب أرغب في أن نجلس إلى مائدة واحدة ونتفق على مصطلحات موحدة عندما يبدأ صوت الشر يتحدث. ولكي نخرج من جمود التعارف لمن لم يسمع عني، أنا محمد الشيباني صديقكم الذي يهوى دراسة العقول المريضة التي تخفي أفكارًا إجرامية ذات نمط معين، مزاجيٍّ قليلًا، ومع أني أتحدث كثيرًا عن الشر فإني أبقى متفائلًا دائمًا!

أكتب لكم هذه المقدمة وأمامي ملفات قضايا من حول العالم استطلعتها في السنوات الماضية. وبينما قهوتي تبرد أمامي وهي تنتظر أن أرتشف منها، أتفحص ملفات تحمل تفاصيل كثيرة لم أحلم قبل عشرة أعوام أنني سأشهدها على أرض الواقع، وكان أبعد تخيلاتي أنّ هناك مُخرجًا مبدعًا سيستعين بالخيال العلمي لصناعة فيلم عن قاتل في مدينة ساحلية في دولة لاتينية يتغذى على لحوم بشرية وأعضاء آدمية لسياح كانوا يستمتعون بإجازاتهم! أو سيدة تساند زوجها في طقوس طرد الأرواح التي تتحول إلى جريمة اعتداء جسدي على ضحايا يظنون أنهم بعد ذلك حاملون بأطفال الجن! أو قاتلًا يقرر أن يزهق حياة أطفاله فقط لإيلام السيدة التي انفصل عنها، ويصور جريمته في مقطع فيديو في أحد مواقع التواصل الاجتماعية المشهورة وهو يضحك قائلًا: «شفتِ؟»

Telegram:@mbooks90

أحبائي القراء، ما ذكرته لكم هو فقط ثلاث محطات في رحلتنا هذه، ويحزنني دومًا أن أكون شاهدًا على عصر هؤلاء المجرمين، حتى إن تلقوا جزاءهم بالقانون أو رحلوا عن عالمنا إلى دار البقاء فسيظلون هنا في هذه الملفات. ولكن، في هذا الحزن جانب مشرق، هو رغبتي في وضع أسس لمجال التحليل الإجرامي وأرشيف سلوكي جنائي عنهم، حتى إن وصلك كتابي بعد عشرين عامًا من تاريخ إصداره! فيجب أن تشارك معنا في تطوير هذه الأسس.

لن أطيل عليكم هذه المقدمة.. أعلم أن الاستعجال صفة مذمومة عندي، ولكنها

تكون محمودة عندما يتطلب الأمر الاختصار، فأنا لا أحب أن تصابوا بالملل، فقط أريد منكم أن نتلاقى لننصت إلى أغوار هذا الكهف المظلم.

إنها اللحظة! هدووووء..

لقد بدأ الشر يتحدث...

محمد الشيباني

الفصل الأول

الشر يتحدث.. هل من مستمع؟

(1)

تحليل 101

«إذا أردت أن تفهم الفنان فعليك أن تفهم اللوحة، وإذا أردت أن تفهم مجرمًا فعليك النظر إلى جرائمه»

قد يظن الناس أن عمل المحلل هو مجرد تخمين وحظ، ولكن الحقيقة هي أنه يجمع بين مجالات الحياة المختلفة التي تؤثر في سلوك الإنسان من الناحية البيولوجية والمجتمعية والثقافية والتاريخية والنفسية، ويربط بين هذه العوامل بطريقة فنية مستندة إلى مشهد الجريمة ونوع السلاح والضحية، وهذا لا يأتي من فراغ أو من تخمين محظوظ كما يعتقد البعض، بل يتطلب من المحلل أن يبحث في كل سلوك إجرامي سواء كان متسلسلًا أو عنيفًا في أي مكان جغرافي، ومن ثم يبني قاعدة بيانات عقلية تساعده على تقريب الدوافع والأسباب، فقد تحمل قضية حدثت في القرن التاسع عشر تفسيرًا لقضية في عام 2023.

قبل أن نبدأ، لا بدّ أن نتفق على معنى التحليل الإجرامي الذي لم أذكره -وأرجو المعذرة عن ذلك- في كتبي السابقة.

من هو المحلل الإجرامي؟ وما طريقته؟ وما هدفه؟ ومتى يبدأ عمله؟ هذا الموضوع يتوقف –ببساطة- على عاملي الاستدعاء:

العامل الأول: جريمة أو جرائم عنيفة!

أود أن أوضح هذه النقطة لتجنب الغموض. ما أعنيه بالجريمة العنيفة -سواء أكانت واحدة أم كانت متكررة- هي تلك التي تشمل التشويه أو تعدد الطلقات أو

الطعن المبالغ فيه وغير الضروري من المجرم. يمكننا تلخيص هذه النقاط بتعريفها كما يأتي: الأفعال المبالغ فيها التي لم تكن ضرورية للمجرم. هنا نحتاج إلى دراسة سبب هذا العنف غير المبرر والبحث في خلفية المجرم النفسية والاجتماعية ومحاولة معرفة ما الذي أثار هذا العنف الذي يستند إلى مشاعر عاطفية سلبية (كالكره والحقد). نعم، عادة.. هذا النوع من الجرائم يكون مدفوعًا بمشاعر عاطفية سلبية، والسؤال يكون عن مصدر هذه المشاعر وتراكماتها وعلاقتها بأماكن الإصابة في جسد الضحية.

العامل الثاني: الرقم السحري؛ ثلاثة أو أكثر!

ويقصد منه أيّ سلسلة جرائم تتجاوز الثلاث من أي نوع، سواء جريمة سرقة أو قتل أو اعتداء إلخ، ونستطيع أن نرصد تشابهًا بينها بسبب نوع الضحايا أو نوع السلاح أو بعض السمات السلوكية في مشهد الجريمة، فهذا يدل على وجود (مجرم متسلسل). لذا، نحتاج إلى دراسة أسباب استمرار هذه السلسلة من الجرائم مع أن المجرم كان بإمكانه التوقف بعد الجريمة الأولى أو الثانية أو الثالثة! إذًا، لماذا لم يفعل؟! هنا لا بدّ من معرفة دافع الاستمرارية، هل هو معنوي أم مادي؟ أم هو مزيج من كليهما؟

يتبع هذا النوع من المجرمين المتسلسلين نمطًا معينًا، دورة حياة تضم تفاصيل خاصة به لا يستطيع تغييرها لأنها تعكس دوافعه الشخصية التي تميزه عن باقي المجرمين المتسلسلين من نفس الفئة، وهذا يدفعني إلى شرح سبب استمرارية التحليل على الرغم من تكرار نوع الجرائم ووجود فترة راحة بين جرائمه للانتشاء والعودة إلى نشاطه. سأتطرق لاحقًا إلى هذه النقطة الهامة في تشكيل خيال المجرم، فإذا استطعنا اكتشاف هذه الخريطة الذهنية والسلوكية للجاني المتسلسل، والرجوع إلى خلفيته الاجتماعية ونشأته، فإننا نستطيع استخلاص سمات قد تساعد قوات تنفيذ القانون في أي بلد بالعالم على تضييق دائرة المشتبه فيهم بناء على هذه الخريطة. لذا؛ أود أن أوضح أن المجرم الفردي -الذي اغتنم الفرصة وارتكب جريمة واحدة- لا يدخل ضمن نطاق التحليل الإجرامي إلا إذا بلغ الرقم السحري.

السؤال الشائع في المجتمع: «هل جميع المجرمين متشابهون؟». هنا، يظهر الفارق بين مجال التحليل الإجرامي وبين علم النفس الجنائي، وهو أننا نتعامل دومًا مع عقل المجرم العنيف والمتسلسل على أنه فريد من نوعه وله تكوينه الخاص. ولكن، أحب أن أوضح لكم رؤيتي التي أطرحها دومًا في محاضراتي: أنا أرى المجرمين المتسلسلين مثل فريق كرة قدم، فريق مكون من 23 لاعبًا يلبسون زيًا موحدًا ولهم الشعار نفسه. ولكنهم في الحقيقة مختلفون عن بعضهم في:

- المركز والتخصص: (في الفريق حارس المرمى ومدافعون ولاعبو وسط ومهاجمون) وكل منهم يتصرف حسب ما يقتضيه مركزه. تصرُّفٌ لا بدّ مرتبطٌ بقدرة الشخص الذهنية والبدنية التي تميزه عن غيره.

- نقاط القوة والضعف: لكل لاعب مزايا وعيوب تجعله يتخذ سلوكيات معينة في الملعب، والمدرب يحاول أن يستغل هذه الأمور لصالح الفريق، ولكنهم في النهاية مختلفون.

- درجة الخبرة: هنا، نلاحظ الفارق بين من لديه تجارب عديدة وخبرة في التعامل زادت من نقاط قوته وقللت من أخطائه، على عكس اللاعب المبتدئ الذي يخطئ كثيرًا ويسعى لمعرفة نقاط ضعفه وقوته.

لنعُد إلى من هم أساس الحديث: المجرمين المتسلسلين. قد يتشابه المجرمون المتسلسلون في الوصف الجنائي، وأحيانًا في تفاصيل الجرائم حتى. ولكن، هناك اختلاف جوهري في طريقة تشكيل الخيال الإجرامي والوصول إلى الدافع. فمثلًا: لدينا ريتشارد راميريز الذي ارتكب موجة جرائمه المتسلسلة بين عامي 1985-1986. لم يكن راميريز يستهدف نوعًا محددًا من الضحايا كغيره من القتلة المتسلسلين، بل كان يستهدف رمزية المنزل وما يمثله من أمان وراحة للإنسان، وبالأخص غرفة النوم. كان يهاجم ضحاياه خلال نومهم. إذ إنه بسبب طفولته المضطربة ومراهقته المشردة يرغب في أن يجعل مجتمع لوس أنجلوس يخسر مصدر الأمان والراحة والمنزل الذي حُرم منه دائمًا. كان راميريز يستمتع بخوف سكان لوس أنجلوس من طارق الليل، أو كما سماه الإعلام آنذاك «المطارد الليلي».

كان يخيل إليه ذلك الخوف الذي يغزو كل الأحياء لساعات حتى تشرق شمس الصباح، وبعدها يتحول خياله إلى قلق السكان وتساؤلهم: «إذا كنا سالمين، فأين هو المنزل المنكوب الذي اقتحمه المطارد الليلي؟» هذا الخيال لا يشبه خيال تيد بندي أو دينيس ريدر(BTK) أو حتى قاتل الاتحاد السوفييتي المشهور أندريه تشيكاتيلو الذي كان يجد في السكين والقتل العنيف تعويضًا عن ذكورته التي استهزأت بها زوجته مع جارتها أمام عينيه.

الخيال الإجرامي هو الحد الفاصل لنمط الجاني ونوع جرائمه، أو -بمعنى أدق- العنصر المميز الذي يكشف دافع الجاني ويفرقه عن سائر المجرمين الذين يشاركونه نفس الفئة، وهذا أوضح ما يمكن أن نصف به الحد الفاصل الذي يسعى له محلل السلوك الإجرامي.

الشكل التوضيحي رقم 1

(2)

الدليل الشامل لاستخدام سلاح المجرم

المجرم التفضيلي لا يختار سلاحه بمحض المصادفة

إن دراسة عشرات القضايا المتسلسلة التي استُخدم فيها أسلحة متنوعة حول العالم تكشف عن وجود تشابه بين هذه الجرائم وبين دوافع اختيار سلاح معين دون غيره. يمكنني أن أقول لكم إن سلاح الجريمة يعبر عن حالة المجرم النفسية ومشاعره الداخلية. هذا ما يمكن تلخيصه في جملة بسيطة، لكنّ خلف هذه الجملة شرح مطوّل، وهذا هو هدف هذا الباب. ولكن قبل ذلك، يجب أن نتفق على مبادئ ومصطلحات مشتركة تساعدنا في شرح أداة الجريمة ودلالاتها بالنسبة إلى كل مجرم.

قاعدة القياس المستخدمة في الدليل

المعيار الذي اعتمدناه في هذا الدليل هو مدى قرب السلاح من الضحية ومدى تواصل الجاني معها. وسنبدأ بالسلاح الذي يبعد المجرم عن الضحية ويقلل من تفاعله معها، ثم ننتقل إلى السلاح الذي يقرب المجرم من الضحية ويزيد من تفاعله معها. وفي هذا الدليل، استثنينا القنابل والهجمات الإرهابية لأنها تحمل رسالة جماعية لا فردية، ولا تعكس شخصية المنفّذ بقدر ما تعكس أيديولوجية الجماعة التي ينتمي إليها.

1 - أسلحة بعيد المدى (أ، م، ب).

في هذه الفئة، سنتناول كل سلاح يمنح المجرم مساحة مريحة ويوفر له القدرة على تجنب الاتصال مع الضحية. في هذه الحالة، قد يواجه المجرم صعوبة في إصابة هدفه من مسافة بعيدة خصوصًا إذا كان السلاح ناريًا (بندقية صيد أو بندقية عسكرية) أو ميكانيكيًا (قوسًا وسهمًا). وهنا تظهر لنا مدى خبرة القاتل في

التصويب. وكلما كان الهدف متحركًا زادت الصعوبة؛ ما يدل على أن القاتلَ ماهرٌ في رماية الأسلحة وقد تلقى تدريبًا خاصًا في الصيد أو كان قناصًا عسكريًا. وكلما زادت الصعوبة تبرز لنا صفة النرجسية في شخصية القاتل، فهو يستمتع بالتحدي والتفوق على ضحيته. وفي هذه الفئة، يستمد القاتل غذاءه النفسي من عنصرَين: المفاجأة والخوف.

• **عنصر المفاجأة:** يكون المحفز المثير للجاني أن ضحيته أو مجموع ضحاياه لا يعلمون أنه في مكان بعيد عنهم إلى حدٍّ ما ويخطط لقتلهم، يغذي هذا الشعور صفة النرجسية في شخصيته.

المثال رقم 1:

ما فعله جون ألن في جرائم قناص العاصمة 2002، إذ كان يركن سيارته بعيدًا عن أهدافه التي كانت –عادة- محطات وقود ومدارس ومجمعات تسوق.

استغلّ جون خبرته كقناص متمرس مسرّح من الجيش الأمريكي لإثارة الرعب في شوارع ميرلاند، حيث قتل أكثر من عشر ضحايا من مختلف الأعراق والأعمار بطلقة قاتلة واحدة من مسافة بعيدة.

• **شعور الخوف:** وهنا لا يوجد مفاجأة -عكس العنصر الأول-، بل تكون الضحية

على علم أن الجاني يطاردها، إذ يستمتع الجاني بمطاردة ضحاياه وتحويلهم إلى فرائس لغريزته المريضة. فيختار مكانًا جغرافيا يعرفه جيدًا ويشعر فيه بالأمان، ويسمح لضحاياه بالفرار لبعض الوقت، لكنه يتابعهم بسلاحه. وكلما زادت مشاعر الخوف لدى الضحية زادت نشوة المجرم. تدرك الضحية أنها ملاحقة وتحاول إنقاذ حياتها، وتصعب حركتها المستمرة ومحاولتها الهرب من مهمة التصويب على الجاني، لكن ذلك يزيد التحدي والإثارة لديه ويغذي غريزته المعتلة في الصيد.

المثال رقم 2:

روبرت هانسن أو صياد ألاسكا، وهو من القتلة المتسلسلين الأمريكيين الذين يندرجون تحت هذا التصنيف. كان هانسن يختار ضحاياه من بائعات الهوى، وينقلهن بطائرته الخاصة إلى جزيرة نائية، ثم يطلق سراحهن ليهربن منه. وكان يخبر ضحاياه أن عليهن النجاة بحياتهن من أسهم قوسه التي لا تخطئ.

كان هانسن خبازًا لديه مخبز ناجح ومنزل هادئ وزوجة مخلصة، ولم يكن يظهر أي سلوكيات غريبة، كان معروفًا بمهارته في الصيد وشغفه به. وفي التحقيقات معه اعترف هانسن بأن صيده للحيوانات لم يعد يرضيه، وأنه يرغب في -وهنا أقتبس ما

قاله- «تجربة لعبة جديدة أكثر صعوبة، وأكثر خطرًا، وأكثر حياة!».

برر هانسن نوعية الضحايا التي يستهدفها أنهن من «بقايا البشر»، ولن يفقدهن أحد، بل على العكس، إنه يوفر لهن الراحة. كان هانسن مثل أي صياد يجمع تذكارات من فرائسه ولكن خوفًا من اكتشافه بنى جدارًا وهميًا في قبو منزله، وخبأ خلفه ملابس ضحاياه وبقايا إكسسواراتهن التي كن يرتدينها قبل قتلهن.

خلاصة التصنيف

هذا النوع من الأسلحة (بعيدة المدى) يمنح الجاني شعورًا بالقوة والثقة النابعتين من المسافة التي تفصله عن ضحيته. بالإضافة إلى ذلك، تزداد متعته المعنوية برؤية خوف الضحية وعدم توقعها للخطر. فكلما طالت المسافة وزادت حركة الضحية كان ذلك أكثر إغراء وأشد تنفيسًا للجاني، وقد يكون لهذا النوع من المشاعر أصل قديم يعود إلى القرون الوسطى حين كان التفوق في التصويب والهدوء النفسي مقياسًا للذكورية الفائقة والجدارة، وإذا رجعنا إلى المثالين السابقين كجزء من مجموعة درستها، نجد عاملًا مشتركًا بارزًا هو عدم شعور الجاني بالتقدير في حياته الحقيقية، وهذا يدفعه إلى محاولة تعويض ذلك بتهديد حياة أخرى بسلاح من مسافة بعيدة.

2 - أسلحة قصيرة المدى (أ، ق، م).

في هذه الفئة لدينا أسلحة أكثر ومشاعر أكثر، وسيكون التقسيم معتمدًا على الأبعد فالأقرب.

• السلاح الناري (المسدس)

هذا السلاح يختلف عن السلاح بعيد المدى في أنه يعتمد خيالَ الجاني وسيلة للتغلب على مشاعر القتل. فالجاني لا يحتاج إلى تواصل بدني مع الضحية، ولا يشعر بمقاومتها أو معاناتها. وهنا نجد نوعين من الإصابات بالسلاح الناري: الإصابة المباشرة والإصابة بنموذج الإعدام.

الإصابة المباشرة: وفيها يكون جسد الضحية حرًا وغير مقيد، ويمكنه التحرك والهروب. وهذا يدل على أن الجاني لا يرغب في مواجهة الضحية، أو أنه يستخدم

السلاح وسيطًا بينه وبين فعل القتل. وفي هذه الحالة، تكون المسافة بين الجاني والضحية أبعد من بقية الأسلحة قصيرة المدى.

الإصابة بنموذج الإعدام: وفيها يكون جسد الضحية ثابتًا ومقيدًا، ولا يستطيع التحرك أو الهروب. وهذا يدل على أن الجاني يرغب في إنهاء حياة الضحية بسرعة وفعالية، دون ترك مجال للمعاناة. وفي هذه الحالة، يستخدم الجاني طلقة واحدة قاتلة في رأس الضحية أو قلبها مباشرة. ولكن هذا لا يعني أن الجاني لا يشعر بأي شيء. بل على العكس، فإن ترقب الضحية وخوفها وقلقها وعدم قدرتها على المقاومة والدفاع عن حياتها وحتى عدم قدرتها على توقع لحظة سحب الزناد هو ما يغذي خيال الجاني ويزيد من شعوره بالانتشاء، وكلما زادت لحظات الخوف والترقب والترجي كان انتشاء الجاني أكبر، وهنا فيزيائيًا تكون المسافة بين الجاني والضحية أقرب من باقي أنواع الأسلحة قصيرة المدى ويكون رضوخ الضحية جزءًا من هذا القرب، بمعنى أنها غير قادرة بالأساس على الهرب.

- **السلاح الثقيل**

تتميز هذه الفئة من الأسلحة بوزنها الزائد وحجمها الكبير، وهي تعكس جزءًا من نفسية الجاني الذي يستخدمها. وتشمل هذه الفئة أدوات مختلفة مثل العصا الخشبية والأنبوب المعدني والصخرة الثقيلة أو أي أداة تتطلب جهدًا بدنيًا في التعامل معها على الأقل مرة واحدة.

ومن المهم فهم أن الجهد البدني المبذول في استخدام هذا السلاح جزء أصيل من شعور حقيقي في نفسية الجاني، فكلما زاد وزن الأداة وعدد الضربات التي يوجهها بها، كان ذلك دليلًا على زيادة المشاعر السلبية (كراهية أو حقد) التي يحملها تجاه ضحيته أو ما ترمز إليه الضحية في عقله إن لم يكن هناك رابط شخصي بينهما.

يستخدم السلاح الثقيل أحيانًا مقدمة للجريمة، أي إن الجاني يستخدمه لإخضاع ضحيته بضربة مفاجئة لا تترك لها فرصة للمقاومة أو التفادي. وهذا يظهر في تقارير الطب الشرعي التي تبين أن الضحية قد تعرضت لجروح متعددة بأشكال مختلفة، وأن أول ضربة كانت حاسمة في تحديد مصيرها. وفي بعض الحالات، قد لا تكون

هذه الضربة سبب الوفاة، ولكنها تسببت في فقدان الضحية قدرتها على الدفاع عن نفسها.

يحمل استخدام السلاح الثقيل دلالات سلوكية مهمة في شخصية الجاني، فقد يكون ذلك دليلًا على عدم ثقته في قدرته البدنية على إخضاع ضحيته حتى إن كان أضخم منها، فإن شعور عدم الثقة ينبع من شخصيته المضطربة، أو على وجود إعاقة تمنعه من مواجهة ضحيته مباشرة مثل كسر في اليد أو فقدان أحد الأطراف أو عجز في الحركة. وقد يستغل هذه الإعاقة في استدراج ضحيته إلى مكان مناسب لتنفيذ جريمته كونه يبدو غير خَطِر. وقد يستخدم هذا السلاح وسيلة لتعويض شعور نقص يسود داخله، ومحاولة في تقليل الفجوة بين شخص غير مكتمل (الجاني) وبين شخص مكتمل (الضحية)، إذ يجعله استخدام هذا السلاح يشعر بالتفوق على الضحية بعنصر المفاجأة الذي لم تتوقعه. ويمكن تلخيص مشاعر الجاني في هذه العبارة: «حتى إن كنت شخصًا سليمًا لا تعاني من إعاقة مثلي، فأنا أتفوق عليك بعنصر المفاجأة الذي لم تره قادمًا!»

مرعب! أليس كذلك يا أعزائي؟

يحوي هذا الدليل الشامل لاستخدام السلاح في عقل المجرم كثيرًا من الغرائب المرعبة، وقبل أن نتجاوز هذا الجزء المتعلق بالسلاح الثقيل، يجب أن ننتبه إلى عنصر مهم آخر، وهو ما يسمى بنمط انتشار الدماء. هذا النمط مؤشر حقيقي على مشاعر الجاني وقت تنفيذ الجريمة، وهو يساعدني كوني محللًا في فهم طبيعة الجريمة من خلال تقرير خبراء مسرح الجريمة. وهذا النمط يفيد في حالتين كالآتي:

1 - موقع الهجوم: من خلال هذا العنصر، أستطيع إعادة تكوين مسرح الجريمة، لأن انتشار الدماء يخضع لقوانين فيزيائية تحدد نقطة البداية والنهاية للضربة. وهذا يساعد في تحديد نوع الأداة الثقيلة المستخدمة، في حال كانت مفقودة أو لم يستطع فريق مسرح الجريمة إيجادها كون الجاني أخذها معه. والفكرة هي ربط شكل الإصابة التي يشير إليها تقرير الطب الشرعي بنمط انتشار الدماء الذي يصفه تقرير خبراء مسرح الجريمة.

2 - تضاعف المشاعر السلبية: في حالة استخدام السلاح الثقيل، قد يكون من الصعب تحديد عدد الضربات التي تلقتها الضحية، إذا أدت هذه الضربات إلى الوفاة. فمن تقرير الطب الشرعي، نستطيع أن نرى حجم الضرر الذي لحق بمكان الإصابة، لكن لا نستطيع أن نقيس مدى عنف الجاني ودافعه. وهذا المفتاح المهم أن يعكس لي -بصفتي محللًا- نوع العلاقة الشخصية بين الجاني والضحية، أو ما ترمز إليه الضحية في عقله. والفاصل في هذا الموضوع هو نمط انتشار الدماء، الذي يحدد نقطة بداية ونهاية للضربة. فكلما زاد انتشار الدماء والمسافة بين نقطة البداية والنهاية، وزاد حجم الضرر حسب وصف تقرير خبراء مسرح الجريمة، كان ذلك دليلًا على تضاعف المشاعر السلبية التي يشعر بها الجاني تجاه ضحيته.

مثال توضيحي للعنصرين السابقين:

تلقت الشرطة بلاغًا عن جريمة قتل في منزل، وعندما وصلت إلى المكان، وجدت جثة الضحية في غرفة الجلوس، وكان هناك آثار دماء تدل على أن الجاني سحب الجثة من مكان آخر إلى هناك. ولاحظ المحقق أن الضحية تعرضت لإصابة خطِرة في رأسها أدت إلى نزيف شديد. وتمكن خبراء مسرح الجريمة من تحديد موقع بدء سحب الجثة وهو غرفة نوم الضحية. كما رصدوا نمط انتشار الدماء في سقف الغرفة الذي بدأ من الوسادات والأغطية على السرير، وامتد إلى الجدار خلف السرير ثم إلى السقف. لكن خبراء مسرح الجريمة لم يعثروا على أداة الجريمة، وهذا يعني أن الجاني المجهول ربما تخلص منها أو أخذها معه كإجراء احترازي. وبعد نقل الضحية إلى الطب الشرعي، تبين من التقرير أن سبب الوفاة ضربات قاتلة في منطقة الرأس باستخدام أداة ثقيلة يصعب تحديدها لأن المنطقة تضررت بشدة بسبب هجوم متكرر. لكن لم يظهر أي دليل على طبيعة الأداة، سوى أنها كانت ثقيلة بما يكفي لإحداث هذا الضرر القاتل.

هنا تبدأ مهمتي بصفتي محللًا:

باستخدام الصور أو الشرح وتقارير الطب الشرعي وفريق خبراء مسرح الجريمة، ودون الحاجة إلى الوجود في مسرح الجريمة الحقيقي، أستطيع -كوني محللًا-

إعادة تكوين الجريمة منذ بدايتها حتى وصول الشرطة إلى موقعها.

لنعد معًا إلى المثال التوضيحي ونبدأ من تقرير فريق خبراء مسرح الجريمة الذي قال إن الجريمة ارتكبت في غرفة النوم، وبالصور والوصف لنمط انتشار الدماء، تبين أنه لم يكن هناك سوى النمط المذكور سابقًا، وهذا يعني عدم وجود مقاومة من الضحية. وهذا واضح أيضًا من عدم انتشار الدماء بشكل أكبر وأوسع من المذكور في تقرير خبراء مسرح الجريمة. وهذا يشرح نقطة مهمة وهو أن الضحية هوجمت خلال نومها، وهذا هو السبب في هذا الانتشار. كما أن اتجاه الضربة وانتشار الدماء يدل على مكان الجاني بالضبط عند توجيه أول ضربة. هل كان فوق الضحية؟ وهذا يعبر عن أن يد الجاني المفضلة التي توضح مدى قوة الهجوم، هل هو أيمن أو أعسر؟ بعد ذلك سحب الجاني الضحية إلى غرفة الجلوس، وهذا إجراء أصفه -بصفتي محللًا- بأنه استكمال للمشاعر السلبية تجاه الضحية التي لم يستطع التخلص منها بالهجوم الشرس بالأداة الثقيلة. وهذا ما أسميه «فعل غير ضروري في القتل»، فالجاني هنا شعر بأن ما فعله لم يكفِ لإزالة المشاعر السلبية تجاه الضحية أو ما ترمز إليه كبديل من شخص آخر يشابهه في الجنس أو المكانة الاجتماعية أو الحالة الصحية. لذلك فعل شيئًا آخر يشكل نوعًا من التعذيب أو التفريغ للغضب والحقد داخله. وعملية سحب الجثة تعكس أيضًا المجهود البدني المطلوب لذلك، خصوصًا إذا ما رصد توقف في حركة سحب الجثة، وهذا يظهر من آثار السحب. وهذا يدل على قوة الجاني البدنية وتعبه من سحبها. فهل توقف ومن ثم تحرك مرة أخرى؟ أم كان سحب الجثة في حركة واحدة مستمرة من السرير إلى غرفة الجلوس؟

والآن نصل إلى السؤال الأهم: ما نوع السلاح الثقيل المستخدم؟ وهنا نعود لنستخدم العناصر السابقة بشكل معكوس لإعادة تكوين الجريمة. ونبدأ أولًا بتقرير الطبيب الشرعي ووصفه للإصابة ومدى الضرر الذي لحق بمكان الجرح، وهل هناك إصابات أو كدمات أخرى؟

لنفترض أن الضحية لم تعانِ من إصابات أخرى غير الإصابة الرئيسة المميتة، وأنه وجهت عدة ضربات لنفس الموضع وهو رأس الضحية. يدل حجم الضرر الذي

لحق بالجمجمة على ثقل الأداة المستخدمة، وعلى عدد الضربات التي تحتاج إليها هذه الأداة لإحداث هذا التأثير. فلا يمكن مقارنة ضرر إصابة بالعصا الخشبية من ضربتين، مع ضرر إصابة بأنبوب معدني من عدد الضربات نفسها، خصوصًا مع سماكة الجمجمة. وبالاستعانة بنمط نقطة البداية لانتشار الدماء ونقطة النهاية مع وصف الضرر، نستطيع تشكيل صورة أو وصف للسلاح المجهول. هل هو عصا خشبية أم أنبوب معدني أم صخرة مستديرة؟ يستدل على طول السلاح من نقاط انتشار الدماء وشكل قطراتها وتمددها. فمن هنا نستطيع أن نقول إن السلاح المستخدم يحمل الوصف التقريبي: أداة ذات طول وثقل محددين، مثلًا طولها 30 سم وثقلها من 500 غرام إلى كيلوغرام. وهذا ما أدى إلى هذا الضرر العميق في جمجمة الضحية وإلى إصابات أخرى مثل كسور في عظام الوجه. وهذا يعني أن عدد الضربات منطقيًا كان أكثر من ثلاث ضربات سواء كانت بأنبوب معدني أم حتى بصخرة. وإن من ارتكب هذه الجريمة يتمتع بقوة بدنية تزيد احتمال أن يكون جنسه ذكرًا، وبالنظر إلى بشاعة الجريمة وطريقة التصرف خلالها وبعدها، وإخفائه سلاح الجريمة أيضًا، نستدل على مستوى عقلي ناضج يجعله في عمر ما بين 25-40 سنة.

وهذا -يا أعزائي القراء- مثال توضيحي يشرح دلائل استخدام الأسلحة الثقيلة في الجريمة وأهمية قراءة الأنماط المصاحبة لها، وحتى القدرة التحليلية الأعمق منها. والآن سننتقل إلى سلاح أكثر عمقًا ويتطلب مسافة أقرب، ويعكس وصفًا سلوكيًا مختلفًا عن السلاح الثقيل.

• **السلاح الحاد.**

يتطلب هذا النوع من الأسلحة دراسة خاصة للمشاعر النفسية التي تدفع الجاني أو الجانية إلى استخدامه. فالسلاح الحاد هو أي أداة تستطيع أن تجرح أو تقطع أو تخترق جسد الضحية، وكثيرًا ما تكون غير آمنة للجاني نفسه. وكلما كانت غير آمنة زادت المشاعر السلبية والرغبة في التنفيس عنها. فمثلًا، لا يمكننا أن نقارن مشاعر من يستخدم سكينًا ذات مقبض خشبي بمشاعر من يستخدم قطعة زجاج محطمة، فالأولى أكثر راحة وسهولة في الاستخدام، بينما الثانية تسبب جروحًا وألمًا للجاني،

ولكنه يتحمل ذلك بسبب مشاعر سلبية قوية تدفعه إلى التنفيس عنها.

بالإضافة إن السلاح الحاد يختلف عما سبق ذكره في الدليل عن الأسلحة ليس فقط من ناحية المسافة بين الضحية والجاني وليس فقط من باب المشاعر السلبية الدافعة، بل لأنه يحمل دلالات طقوسية للجاني. فالجاني لا يقتصر على قتل ضحيته بالسلاح الحاد، بل يقوم بأفعال أخرى تعبر عن شخصيته أو رؤيته لذاته. ولعل الوصف لا يبدو واضحًا لذا اسمحوا لي بأن أقدم لكم مثالًا توضيحيًا، لنأخذ سلسلة جرائم السفاح جاك المعروفة للجميع التي وقعت في لندن ما بين أغسطس 1888 إلى أكتوبر من العام ذاته، والتي راح ضحيتها خمس نساء كان لهن عدة نقاط مشتركة: كنّ يعملن في مجال الدعارة، وقتلن بطريقة النحر بأداة حادة، ثم شُقت بطونهن واستُخرجت أعضاؤهن الداخلية. وسرق رحم كل ضحية، وفي حالة واحدة سرق الجاني جزءًا من الكبد وأرسله إلى الشرطة. هذه الأفعال الإجرامية التي تبدأ بالنحر لإخضاع الضحية، قد تستغرق وقتًا طويلًا في عملية استئصال الأعضاء؛ ما قد يعرضه لانكشاف أمره، ولكنها أمر ضروري جدًا بالنسبة إلى الجاني وهي الهدف من ارتكاب هذه الجرائم. لأنها تمثل الطقس الذي يود أن يعيشه السفاح دون مقاومة من ضحيته.

بالإضافة إلى عنصر الخضوع وانعدام مقاومة الضحية وتوفر كامل جسدها، فإن السفاح جاك اختار منطقة محددة للهجوم عليها وهي البطن، وكان يسعى لسرقة الرحم من ضحاياه. وهذا يدل -وفق خبرتي التحليلية- على أن السفاح جاك كان يمتلك خبرة طبية أو مهارة في استخدام السكين أو الساطور أو أي سلاح حاد كان يستخدمه، وهذا ما سنتطرق إليه لاحقًا. كما يدل على أنه كان يعيش طقسًا من المعاقبة ودفع الازدراء عن ذاته. فإذا نظرنا إلى كامل الأفعال الإجرامية التي ارتكبها في جرائمه الخمس سواء كان لديه وقت كافٍ أم لا -فالضحية الأخيرة قتلها في منزلها- نجد أنه كان يتبع النمط نفسه ويستخدم السلاح نفسه، وهو ما يشير إلى ضرورة تنفيذ هذه الفكرة لإكمال الطقس السلوكي المنحرف الذي يغذي المشاعر السلبية التي تدفعه.

من العوامل التي تميز الأسلحة الحادة عن غيرها في جرائم القتل هي الألفة بينها وبين الجاني المستخدم لها، وقد لاحظت في كثير من الجرائم التي استخدم فيها أسلحة حادة عنصرين مهمين:

- مدى التردد ونظافة أماكن الإصابة.
- المناطق المستهدفة.

وقد اعتمدت في تحديد هذين العنصرين ثلاث خصائص للجروح التي تركتها الأسلحة الحادة في جسم الضحية، وهي:

1 - طبيعة الجروح وأنماطها ومواقعها.

2 - عمق الجروح.

3 - المجهود المبذول (سواء كان هناك مقاومة أو صراع من الضحية أم لا).

لا يمكن أن نقارن بين جرح سطحي في الكتف وجرح عميق في القلب، عندما تكون الضحية نائمة والجاني لديه خيارات عديدة للطعن، فلماذا اختار هذا المكان بالذات؟ ولا يمكن أن نضع في سياق واحد مشاعر من استخدم السكين لتعذيب ضحية مكبلة -وهذا ما تشير إليه الجروح الملتئمة التي تدل على مدة طويلة من التعذيب- ومشاعر من هاجم من الخلف لإخضاع ضحية بطريقة مفاجئة. لذلك، كان من الضروري أن ننظر إلى كل قضية بمنظور خاص بها، وأن نطرح سؤالين أساسيين:

هل توجد آثار للتردد في شكل الجروح؟ أو، لماذا يبدو الجرح منتظمًا وخاليًا من أي علامات للتوتر؟ تكشف إجابة هذين السؤالين عن مدى خبرة الجاني في استخدام السلاح الحاد. فإذا كانت الإجابة «نعم»، فهذا يعني أن الجاني لم يكن متآلفًا مع سلاح الجريمة، وأنه تردد في طعن ضحيته، وهذا ما يظهر في الجروح المشرشرة وغير المنتظمة التي تدل على صعوبة التحكم في المشاعر والحركات. وعلى العكس من ذلك، إذا كان الجرح حادًا ومنتظمًا، فهذا يعني أن الجاني محترف في استخدام السلاح، وأنه تمكن من التحكم في نفسه وفي سلاحه، وأنه لم يتردد في طعن ضحيته، وهذا ما يظهر في الجروح المنتظمة والمتساوية التي تدل على ثقة ومعرفة

بين السلاح ومستخدمه. ويذكر أن هذا النوع من الجروح يكون أكثر وضوحًا في جرائم التعذيب المؤدية إلى الموت أو في عمليات النحر أو قطع الأعضاء الداخلية أو بترها.

والآن ننتقل إلى العنصر الثاني وهو موقع الجروح وعددها في مناطق الجسم المختلفة، مع الاستفادة من ظروف الجرائم أو الجريمة المفردة ذات الطبيعة العنيفة. وهنا نسأل: هل كانت الضحية تواجه الجاني أم كانت الطعنات من الخلف؟ ما عدد الطعنات؟ هل كانت محصورة في منطقة واحدة أم متفرقة في أنحاء الجسم؟ وهذا ما سيقودنا إلى شرح مفصل عن هذه النقطة.

في البداية لابدّ أولًا أن نقسم الجسم ومناطقه حسب ما ترمز إليه للإنسان العادي وما تعنيه للمعتل عند مهاجمتها، والرابط بين هذه وتلك هو أن الجاني يشعر بدافع دقيق يجعله يستخدم السلاح الحاد في هذه المنطقة أو تلك.

الرأس - الوجه - العنق (منطقة الهوية)

هذه المنطقة تعد جزءًا مهمًا من فهم طريقة استخدام السلاح الحاد، التي تختلف عن باقي الأسلحة، فنحن نحتاج إلى تحديد المناطق المستهدفة، ونبدأ من منطقة الرأس وما تضمه من عناصر تشكل هوية الضحية كالملامح أو الشعر في الرأس أو الوجه، ويفهم من إزالته أو تشويهه محاولة من الجاني إهانة الضحية أو سلب هويتها خصوصًا إذا كانت امرأة.

وهذا يدفعنا للتفكير في أن الهجوم على الرأس بالسلاح الحاد عادة غير ضروري لإنهاء حياة الضحية، بخلاف باقي الأعضاء الحيوية مثل القلب أو الكبد أو العنق. لكن الهجوم على ملامح الوجه يكون عادة نابعًا من مشاعر سلبية لدى الجاني، ومحاولة منه لإظهار كراهيته أو ازدرائه للضحية. خصوصًا إذا ما أثبت تقرير الطب الشرعي أن الجروح التي حدثت في هذه المنطقة كانت بعد الموت. وهذا يمكن تسميته بالفعل غير الضروري في الجريمة، لكن يحمل دلالات كثيرة على نفسية الجاني ودوافعه، خصوصًا أنه قضى وقتًا وجهدًا في هذا الفعل. ولذلك، يجب أن نلاحظ في أي جريمة قتل يكون فيها تشويه الوجه عاملًا موجودًا، فإن هذا توقيعًا

عاطفيًا يعكس مشاعر سلبية شديدة من الجاني تجاه الضحية.

المنطقة العاطفية (الجذع)

هي المنطقة الحيوية التي تحوي أعضاء ينجم عنها الوفاة لدى طعنها بالسلاح الحاد مثل القلب.

تحمل هذه المنطقة سمات نفسية مختلفة عند استخدام السلاح الحاد فيها، ولكن يجب أن نميز بين استخدامه من الأمام أو من الخلف. ولكن قبل ذلك، يجب أن نضع عناصر نستند إليها في رحلة التعرف على هذه السمات النفسية، وهي:

- نوع الضحية؟
- موقع الجروح في المنطقة؟
- المسافة الضرورية لإحداث هذا النمط من الجرح أو الجروح.
- ديناميكية الإصابة بالجرح (التفاعل الذي حدث بين السلاح والضحية والذي يعكس عمق الإصابة وشكلها وأداتها).
- عدد الإصابات الموجودة في المنطقة من نفس النوع (طعنات – جروح قطعية هجومية – جروح دفاعية).

هذه العناصر مهمة جدًا في عملية التحليل لفهم طريقة استخدام هذا السلاح وأهميته للجاني وما يميزه عن باقي المجرمين الذين يستخدمون نفس النوع من الأسلحة.

في عقلي، تشكل هذه العوامل معادلة رياضية تساعدني على حل أي جريمة تتضمن استخدام سلاح حاد وإصابة الجذع. المعادلة تبدو كالتالي:

{نوع الضحية + مواقع الجروح + المسافة + ديناميكية الإصابة + عدد الجروح ونوعها } = {السلاح المثالي للمجرم}

قد تتساءلون عن دور نوع الضحية في هذه المعادلة. هل يؤثر هذا العامل في

اختيار المجرم سلاحه؟ إنه سؤال جيد، وسأحاول أن أجيب عنه.

في الواقع، يعد تحديد نوعية الضحية عاملًا مهمًا في تحليل الجرائم، لأنه يساعدنا على فهم دوافع الجاني وطبيعة هجومه. وفي هذا السياق، يمكن أن نلاحظ فارقًا بين الذكور والإناث في معاني المناطق التي تتعرض للجروح في الجذع. فمنطقة الصدر من الأمام والخلف ترمز إلى العواطف والمشاعر سواء لدى الذكور أم الإناث، إذا كانت هذه المنطقة هي الوحيدة التي تضررت. ولكن إذا كانت هناك جروح أخرى في منطقة البطن لدى الإناث، فقد يدل ذلك على هجوم على رمزية الأمومة خصوصًا إذا كانت الضحية بعد سن البلوغ. وهذا ما حدث في جرائم السفاح جاك التي ارتكبها في المدة بين أغسطس وأكتوبر من عام 1888، وأودت بحياة خمس نساء. ولم يكن ما يجمع بين هؤلاء الضحايا كونهن نساء أو بائعات هوى فقط، بل كانت جروحهن متشابهة في نفس المناطق، وكان الجاني يسرق أرحامهن. وهذه ليست عملية عشوائية أو غير ضرورية، بل تدل على دافع نفسي قوي لدى السفاح جاك. فهو يحمل كرهًا شديدًا للنساء، وتدل سرقة الرحم على أنه يرى أن بائعات الهوى لا يستحققن أن يكن أمهات، لأن ذلك قد يؤدي إلى إنجاب أطفال غير شرعيين يعانون النبذ من المجتمع المحيط بهم. وهو في الواقع ما يعيشه السفاح جاك، ما يشير بشكل صريح إلى أنه طفل بائعة هوى وأنه أنجب بطريقة غير شرعية، وهذا الأمر أثر في حياته، خصوصًا أن الإنجاب خارج قيود الزواج في تلك الحقبة محرم.

المناطق التناسلية

يحمل استهداف هذه المناطق في الجنسين السمات النفسية السلبية نفسها من الجاني تجاه ضحاياه، وعادة ما يثبت التقرير الطبي وجود كثير من التشوهات وأنماطًا مختلفة من أشكال الإصابات بداية من القطع السطحي انتهاء بالاستئصال، وهذا يدل على تصاعد الحقد والانتقام في نفس المجرم، ورغبته في إذلال الضحية ونزع هويتها الجنسية، سواء كانت أنثى أم ذكرًا. فهو يرى في هذه المناطق رموزًا للأنوثة والرجولة، ويريد أن يحرمهم منها.

اليدان المجردتان

إن استخدام اليدين سلاحًا في الجرائم يدل على مشاعر سلبية متراكمة ومتطرفة لدى الجاني، تدفعه إلى العنف الجسدي المفرط. فهو يلجأ إلى اللكمات المتكررة التي قد تسبب الموت، أو إلى الخنق الذي يجعله يشعر بلحظات ضحيته الأخيرة وخروج روحها. وهذا يعبر عن سادية وإصرار من جانب الجاني، الذي يريد أن يشهد معاناة الضحية وآخر لحظات حياتها كأنه ينتقم منها بأبشع طريقة.

الأسلحة الكيميائية والسموم

في ختام دليل استخدام الأسلحة في الجريمة نتحدث عن الأسلحة الكيميائية والسموم وهي أسلحة خاصة تستخدم في الجرائم، يعامل الجاني سلاحه من هذا النوع كبيان شخصي يكشف فيه عن نياته ومشاعره، وقد تستخدم هذه الأسلحة في جرائم جماعية، كما حدث في هجوم جماعة أوم التي أسسها ماتسوموتو تشيزو في منتصف التسعينيات. فقد نشروا صناديق مليئة بغاز السارين السام في عربات المترو في طوكيو؛ ما أدى إلى مقتل كثير من الأبرياء. يندرج السم أيضًا تحت هذه الفئة من الأسلحة، وهو يظهر شدة الكراهية التي يحملها القاتل، خصوصًا أن الضحية عادة لا تدرك أنها تعرضت لتسمم. وقد كان السم وبالأخص سم الزرنيخ هو السلاح المفضل للنساء عبر التاريخ. ولكن عمومًا، يستخدم الجنسان هذا السلاح لنفس الغرض، وهو استغلال عامل عدم معرفة الضحية بالتسمم؛ ما يعطي القاتل أو القاتلة مزية قد يفقدها إذا اختار سلاحًا آخر.

هذا هو ختام الدليل الشامل لسلاح القاتل، الذي قادني إلى رحلة مثيرة في عالم الجريمة. فقد تتبعت أكثر من ١٢٤ جريمة في دول العالم كافة ومختلف عصور العالم، وحاولت فهم مشاعر القاتل وأسباب اختياره لسلاحه. كما درست أنماط الجروح التي تنتج عن كل سلاح، وكيف تؤثر في طريقة الوفاة. لكن هذا الدليل لا يمثل النهاية، بل هو بداية لاستكشاف أعمق وأوسع لعالم الجريمة. فالقاتل يتطور باستمرار في استخدامه للأسلحة، ويبتكر طرقًا جديدة لإنهاء حياة ضحاياه. لذلك، سأواصل تحديث هذا الدليل في كتابي القادم.

(3)

المصلحات

«يجعلنا الشعور بالذنب الممزوج بالمسؤولية أحيانًا نعتقد أننا مطالبون بإصلاح الآخرين»

في كتاب 40 زنزانة، تناولت ظاهرة نفسية غريبة تجعل الإنسان يشارك في الأفعال الإجرامية مع شخص آخر، تظهر عادة عند الإناث. تسمى هذه الظاهرة (هايبرستوفيليا) أو الانجذاب إلى المجرمين. وقد أشرت في ذلك الفصل إلى أن هذا الانجذاب يستند إلى رغبة الأنثى في الحصول على تعويض للأمان المفقود في واقعها، استنادًا إلى مبدأ «إن أكثر مكان آمن من الشر هو بجوار الشر». ولكن هذا ليس سوى طيف واحد من هذه الظاهرة، فهناك طيف آخر يقوم على رغبة مرضية في إصلاح المجرم أو الجانح. وهذه الرغبة قد تدفع الأنثى إلى مساعدة الجاني، ظنًا منها أن هذا سيساعدها في علاجه. ولكن هذا لا يحدث أبدًا. فهذا الطيف من الظاهرة يستهدف نوعًا خطِرًا ومعقدًا من المجرمين والجانحين، والذي ترى في صعوبة حالتهم ما يزيد من حافزها على محاولة إصلاحهم.

هذا النوع (المصلحات) هن نساء يعانين ماضيًا مؤلمًا، فقد فقدن ابنًا أو زوجًا أو أخًا بسبب انحرافه وسلوكه الإجرامي، سواء كان ذلك بالموت أم السجن. لذلك فالدافع الحقيقي للعلاقة هو الهرب من شعور الندم لأنها ترى نفسها مسؤولة عن فقدان هذا القريب بسبب أنها لم تتصرف في الوقت المناسب أو لم تكن تعطي بالًا لتصرفاته!

تكون المصلحات عادة نساء لهن مكانة اجتماعية عالية ووظائف مرموقة، ولا يتقاطع طريقهن مع المجرمين، وهذا ما يعزز الشعور بالذنب نتيجة الضغط المجتمعي المحيط بها وتساؤلات الآخرين حولها كيف لم تستطع هذه الأنثى المتعلمة والمثقفة إنقاذ هذا القريب من الموت أو السجن الذي قاده إليه طريق الانحراف

والإجرام، لذا فهي تسعى للتخلص من شعور الذنب بالإصرار المرضي، لكن في دراستي لهذه الشخصية وجدت أنه بالإضافة إلى مشاعر الندم الممزوج بالمسؤولية وتحميل المجتمع المحيط لها تساؤلات تشعرها بالذنب يكون لدى هذه الشخصية صفة النرجسية والرغبة في الكمال، فهي لا تقبل أن تكون هناك غلطة أو خلل في صورتها الاجتماعية حتى لو كان المخطئ فرد من أسرتها وليس هي؛ ما يدفعها للبحث عن بديل يشعرها بأنها كاملة، هي لا ترغب في الإصلاح فحسب بل تنشد الكمال لذاته لذلك تلجأ إلى التصرفات التي تؤدي إلى تدمير ذاتها أو سمعتها.

(4)

المخدرات والسلوك الإجرامي

«المادة المخدرة ليست دافعًا بل هي صانع السلوك الإجرامي»

هناك من يربط بين الجريمة والمخدرات بطريقة غير منطقية، ويعتبر أن المادة المخدرة هي السبب الرئيسي لارتكاب الجاني الجريمة، إذا كان لديه تاريخ مع الإدمان. ولكن في مجال تحليل السلوكيات الإجرامية، رأيت حالات كثيرة توضح هذا المنظور. فهل الإدمان على المخدرات دافع للجريمة؟

أريد أن أوضح أولًا أن الإدمان على المخدرات لا يعد دافعًا للجريمة بحد ذاته، ولكن هذا لا يعني أنه لا يؤثر في السلوك الإجرامي. فالدوافع السلوكية وراء أي جريمة، سواء كانت منظمة أو عشوائية، متسلسلة أو واحدة، هي (الانتقام، السيطرة، التعويض، القوة)، وبعد ذلك نشرح المحفزات التي تؤجج هذه الدوافع، ومنها الإدمان. فالإدمان هو محفز للدافع الإجرامي، وليس الدافع نفسه.

فعندما ننظر إلى ذلك القاتل المجرم الذي هزت قضيته مدينة الإسماعيلية في مصر أواخر عام 2021، والذي هجم في صباح الأول من نوفمبر من ذلك العام على شخص يقود سيارته وقتله وفصل رأسه عن جسده، وردد كلمات وجملًا غير مفهومة، وبعد أن ألقت الشرطة المصرية القبض عليه تبين أنه من مدمني المواد المخدرة.

هذا النمط من الهجوم البشع والفعل الإجرامي المبالغ فيه -فصل الرأس عن الجسد- هو حصيلة تأثير المادة المخدرة في مناطق الإدراك في دماغ الجاني، ولكن الدافع هو رغبته في الانتقام من الحياة المجتمعية التي يرى أنها ظلمته، لذلك قرر أن يفصل الرأس وأن يمشي به بين الناس، حتى لو كان لا يدرك ما يفعله بشكل واعٍ فإن هذا الفعل يظهر لنا ما يشعر به عقله الباطن تجاه أهل المنطقة والخوف الذي يريد أن يبثه في قلوبهم.

في سياق متصل بهذا المثال، هناك اختلافات بين أنواع جرائم المدمنين، وهذا يعود إلى اختلاف الدوافع مع أن المادة المخدرة هي من أججت هذا السلوك. وفي هذا الباب أود أن أشرح بدقة أن المخدرات ليست بسيطة كما يظن البعض، إذ إنها أول ما تبدأ بمدمنها فتقتله، وهي عامل خطر يولد الجرائم، ولكن ليست «دافعًا» لها. الإدمان والسلوك الإجرامي هما كالتوأمين الملتصقين، فإذا بدأ شخص بالإدمان فإنه يستقبل معه الجانب الإجرامي. وفي هذا المقام سأشرح بدقة نوعين من العلاقة بين الإدمان والسلوك الإجرامي.

1. عقل مدمن دون خيال إجرامي.

هذا النوع من المدمنين يظنون أنهم يستطيعون السيطرة على إدمانهم، وأن تأثير المخدرات فيهم ضئيل، ولكن هذا مجرد وهم. فمع مرور الوقت -حتى إن كان المدمن ثريًا أو متعلمًا أو في سن متقدمة يقل فيها التهور- يزداد الإدمان وسيؤدي إلى ارتكاب جرائم مختلفة، مثل السرقة لشراء المخدرات، أو الاعتداء على الآخرين بسبب الغضب أو الهيجان، أو الاعتداء الجنسي على أفراد الأسرة أو الغرباء بسبب فقدان الوعي، أو حتى تقديم أطفالهم أو أزواجهم ثمنًا للمخدرات. لذلك نلاحظ أن هذه العلاقة بين الإدمان والسلوك الإجرامي تتضح تدريجيًا، وهي كالتوأمين الملتصقين. ولكن لأن هذا المدمن لا يملك خيالًا إجراميًا في عقله، فإن هذه العلاقة تستغرق وقتًا أطول للظهور، على عكس النوع الثاني الذي يكون لديه سلوك إجرامي مسبق، وهذا يجعل خياله الإجرامي يتحول إلى واقع بشكل أسرع وأقرب من هذا النوع.

2. عقل مدمن يوجد فيه خيال إجرامي.

هذا النوع من «علاقة الإدمان بالسلوك الإجرامي» يشبه علاقة النار بمادة البنزين وكيف تساعد هذه المادة في اشتعال النار واتساعها وتضخم ضررها. بالضبط هذا ما يحدث داخل عقل المدمن الذي يوجد فيه خيال إجرامي واعتلال سلوكي، فقد كان قبل الإدمان يحاول قمعه بسبب الخوف من ردود الفعل المجتمعية أو العقاب القانوني أو الديني. ولكن عندما يبدأ بإدمان المخدرات، تصبح مسرعًا لهذا الخيال،

وتجعله يظهر ظهوزا وحشيًا وغير إنساني. لذلك نرى هذا النوع من المدمنين يرتكبون جرائم تتسم بالعنف المفرط أو انعدام الروابط الإنسانية مع ضحاياهم. وهذا هو الفارق الذي يميز هذا المدمن عن غيره، ويجعلنا نصفه بأن لديه خيالًا إجراميًا تضخم بسبب المخدرات.

أريد أن أنبهكم أعزائي القراء إلى خطورة المخدرات والوهم الذي يسود بعض المدمنين الذين يجربون المخدرات من باب الفضول، ظنًا منهم أنهم يمكنهم السيطرة عليها، ولكن هذا فخ يقعون فيه من أول استخدام، فالمخدر يسيطر عليهم ويدفعهم إلى الجريمة. ولا تظنوا أن هناك مخدرًا خفيفًا وآخر شديدًا، فكل المخدرات بأنواعها الكيميائية والطبيعية ستجعلكم من أحد النوعين اللذين ذكرتهما أعلاه. وتذكروا دائمًا أن المخدرات والسلوك الإجرامي توأمان ملتصقان، فإذا دخلتم في دائرة الإدمان فستدخلون معه في دائرة الإجرام، بحق أنفسكم وحق المجتمع.

(5)

أنا ضحية أنا مجرم أنت السبب!

«إن المجرم لا يولد مجرمًا، بل هو ضحية في الماضي لأمر كبير أو صغير معنوي أو مادي، وهذا ليس تبريرًا بل حقيقة تكوين المجرم».

قد تكون هذه المقدمة صادمة لمن لا يعرفني، ولذلك لا بد من توضيح بسيط قبل الخوض في تفاصيل هذا الباب. أعزائي، ما ذكرته في الأعلى يستند إلى إحدى نظريات علم الضحايا، وهذه النظرية تفسر كيف تتأثر ضحية الحدث المادي أو المعنوي المؤثر -حتى إن كان بسيطًا- بالعزلة المجتمعية أو الضغط غير المبرر أو عدم قدرتها على تقبل ما حدث لها. وهذا يدفعها إلى التحول من ضحية إلى جانٍ، سواء بإلحاق الضرر بنفسها أو بالآخرين. فقد تلجأ إلى الإدمان أو الانتحار أو الانحراف الأخلاقي. وهذا ليس مبررًا لهذه التصرفات بل هي نقطة انطلاق لتحديد المؤثرات التي ساهمت في هذا التحول. وبصفتي محلل سلوكيات إجرامية فإن هذه النقطة تساعدني على فهم لماذا ومن ومتى وكيف؟ لتحليل سلوك المجرم.

لتحليل سلوك المجرم العنيف أو المتسلسل، يجب أن ننظر إلى الحدث الذي أثر في ماضيه وصفاته الإجرامية. فقد يكون هذا الحدث هو الذي شكل خياله الإجرامي ودفعه إلى ما هو عليه كأن ما حدث هو من صنع مستقبله الإجرامي.

ومن خلال دراسة القضايا التي تعرضت لها، لاحظت أن المجرم يرى نفسه ضحية في الماضي، وهذا ينعكس على نوع وطريقة جرائمه. فمثلًا لدينا قضية وحش حولي الذي روع سكان دولة الكويت بين عامي 2006 و2007 وخلف وراءه أكثر من 15 طفلًا ضحية، لم يصدر أي تصريح عن الدافع الحقيقي لهذه الجرائم البشعة من الجاني، ولكن بصفتي محلل سلوكيات إجرامية وبعد الاطلاع على عناصر الجرائم المنشورة وأقوال رجال الأمن الكويتي الذين تولوا التحقيق في القضية، لاحظت أن الجاني كان يعتبر نفسه ضحية في الماضي، وأن هذا كان مبررًا له

لارتكاب جرائمه. وهذا كان ظاهرًا وبينًا في تصرفه بطريقة غير منطقية لا تتفق مع الدوافع الإجرامية المعروفة.

استطعت أن أستخلص بعض العناصر المشتركة في جرائمه. فوحش حولي كان يستهدف الأطفال دون سن السابعة عشرة في وقت الظهيرة، وهذا يدل على أنه كان يبحث عن ضحايا ضعفاء وغير محميين. وهنا نلاحظ أنه اختار ضحايا من نوع غير مألوف، وهم الأطفال الذين لا يكونون مصحوبين بشخص بالغ في وقت الظهيرة، ولذلك كان يقوم بجولات يومية يبحث فيها عن الفرصة المناسبة: «طفل وحيد»، وهي فرصة نادرة الحدوث. ولكن المثير للانتباه في هذه الجرائم أن المجرم بعد أن يعثر على طفل ويأخذه إلى مكان بعيد عن الأنظار، حيث لا أمل في إنقاذ الضحية، كان يستخدم سكينًا لتهديد الطفل وإجباره على طاعته وإلا قتله.

وهنا أود أن ألفت انتباهكم إلى نقطة مهمة قد يكون بعضكم على دراية بها، وهي أن الجاني المدان كان مدربًا في صالة رياضية ولديه بنية عضلية قوية. وربما كان وزن ضحاياه أقل مما يحمله في التمارين. وهذا يعني أن ضحاياه لم يكونوا قادرين على مقاومته بسبب الفارق العمري والبدني بينهم. ولم يكن من الممكن تدخل أحد لإنقاذهم حتى لو صرخوا أو هربوا بطريقة إعجازية بسبب بعد المكان الذي اختاره لجريمته. ولكن هذا الجاني استخدم سكينًا أداة تهديد مع أنه لم يكن بحاجة إليها، بالنظر إلى عوامل الأفضلية التي ذكرتها، وليس فقط عاملًا واحدًا! وكما أعلم جيدًا، فإن الجاني المنظم والمتسلسل لا يفعل شيئًا عشوائيًا، بل كل خطوة وفعل ورد فعل وتصور يتكرر في جرائمه هو فعل مقصود له معنى للجاني. فماذا كان معنى استخدام السكين بالتحديد لوحش حولي؟

بالعودة إلى الباب الثالث، تحدثنا عن سلاح الجريمة الحاد، وكيف أنه يعبر عن المشاعر السلبية للجاني، ويتطلب نوعًا من الثقة لحمله. وأيضًا ذكرنا أنه في بعض الجرائم، يكون الطعن بديلًا عن الاعتداء الجنسي، وهذا يرجع إلى وجود عجز جنسي أو تشوه في الأعضاء التناسلية للجاني؛ ما يجعله يستخدم سلاحًا حادًا رمزًا للذكورة التي يشعر بفقدانها. وهذا يؤدي إلى ازدراء ذاته وعدم ثقته بنفسه، حتى لو كان قويًا

أو كبيرًا بدنيًا. وعادة ما تكون الضحية غير مدركة لانعدام الثقة هذا.

في قضية وحش حولي، أستطيع أن أجزم بثقة أن الجاني كان يعاني ضعف الثقة بالنفس، ولو تعاملنا معه في الماضي لوجدناه يعتذر كثيرًا في مواقف لا يكون فيها مخطئًا، ويتجنب النظر في أعين الآخرين، ويتحدث عن علاقاته مع الفتيات بشكل مبالغ فيه أمام أصدقائه القليلين كأنه يريد أن يثبت شيئًا ما لنفسه أو للآخرين.

واختياره هذا النوع من الضحايا -الأطفال- يدل على وجود عجز جنسي أو تشوه في أعضائه التناسلية ناتج عن اعتداء تعرض له في طفولته. فهو يظن في خياله المريض أن هذا الاعتداء هو السبب في فقدان ذكورته، ومع أنه كان يمتلك بنية رياضية قوية، التي ربما بناها حيلة نفسية دفاعية للتغلب على صورته الضعيفة التي يحملها في ذهنه. وهذه الصورة هي التي تدفعه إلى ارتكاب جرائمه.

وأنا أتكلم عنه وفق المعطيات المتوفرة التي تشير إلى تمتعه بالقدرة البدنية، ولذلك فإن استخدامه السكين كان لتهديد الطفل فقط، وفي الحقيقة لا داعي لها في إخضاع الطفل. وهذا مخالف للمجرم المنجذب جنسيًا للأطفال والباحث عن الإثارة (الذي تكلمت عنه في الفصل الثالث في كتاب 40 زنزانة) والذي لو كان في موقع وحش حولي بذات البنية ونوعية الضحية ومكان مسرح الجريمة سيكون من المثير له أن تقاومه الضحية، وهذا هو الفارق الخفي بين هذين النمطين.

تنويه مهم: ما ذكرته في هذا الباب لم يكن تبريرًا لجرائم وحش حولي، بل كان شرحًا لخياله المجرم، الذي حللته وذكرت أنه كان ضحية في الماضي. وهذا كان لفهم كيف تشكل خياله الإجرامي، ومتى تشكل، وكيف تطور، ومن هو المسؤول عنه.

(6)

الرقصة الأخيرة

«قاعة المحكمة، كاميرات الإعلام، التجمهر.. هي ببساطة فرصة للجاني لعرض رقصته الأخيرة أمامنا ليخلده التاريخ!»

لقد درست أكثر من 209 قضية جنائية في مختلف أنحاء العالم خلال 11 عامًا على اختلاف مسمياتها القانونية وعقوبتها وجنس منفذها، ووجدت أن هناك عاملًا مشتركًا بين هؤلاء المجرمين هو تعاليهم وافتخارهم بجرائمهم عندما يظهرون في المحاكم أو أمام وسائل الإعلام، كنت أنظر إلى أكثر من 15 صورة لمجرمين في أزمنة مختلفة، فأرى في أعينهم المليئة بالشر نظرة الفخر بأفعالهم الشنيعة. يبدو أنهم يقولون لنا: «لن ننتهي، ستبقى هذه الصور محفورة إلى الأبد في أذهانكم، انظروا إلينا.. لا نشعر بالذنب لا نشعر بالعار».

تيد بندي أشهر قاتل متسلسل في القرن الماضي، أحد المجرمين الذين ساعدوني في وصف هذه السلوكيات التي يظهرونها بعد القبض عليهم، أدين بقتل أكثر من 10 ضحايا من النساء، في أثناء المحاكمة تخلى عن حقه في تعيين الولاية الأمريكية في فلوريدا محامي دفاع عنه، وقرر أن يدافع عن نفسه أمام المجتمع والإعلام آنذاك. كان الجميع يظن أنه يتذاكى على القاضي، ولأنه يحمل درجة البكالوريوس في القانون فهو يعرف كيف يقف أمام هيئة المحلفين والقاضي.

في الواقع كنت أظن ذلك أيضًا حتى حصلت على تسجيلين أصيلين لجلستي محاكمة ضد بندي، تغيرت وجهة نظري حينها بل في الواقع زاد إصراري على أن هناك سمة للمجرمين أمام الكاميرات، لم يكن تيد بندي يدافع عن نفسه أو يتذاكى، على العكس فإن لغة جسده في أثناء الجلستين وهدوءه وأناقته وابتسامه للصحافة كل ذلك كان رسالة منه، رسالة جعلتني اليوم في الخامس عشر من أبريل عام 2019 أجلس أمام شاشة حاسوبي أشاهده يترافع عن نفسه بأناقة وهدوء قبل

أكثر من 35 عامًا، كانت لحظات لا تُنسى. نعم، تيد بندي قدم عرضه الأخير بطلًا في مسرحية درامية، يصفق له الجمهور في نهايتها، وتغلق الستارة على مشهده المؤثر.

حسنًا قد لا يبدو كلامي منطقيًا من وجهة نظر علم النفس، لكن -بصفتي محللًا- لدي نظرة تجمع بين العلم والأدب. المهم أن تشرح ما يحدث بشكل منطقي، إذا لم تكونوا قد اطلعتم على المشاهد الختامية من مسرحيات شكسبير، أنصحكم بأن تقرؤوا مشهدًا واحدًا يبين ما أقصده بكلامي السابق. هو مشهد موت روميو وجوليت، اللحظة التي كانت شديدة العاطفة والتي ضحى العاشقان فيها بحياتهما من أجل حبهما، هذا المشهد يجعلني أفكر في كيفية اختيار تيد بندي أن يحكم عليه بالإعدام، فقط لكي يبقى في ذاكرتنا هذا المشهد الشهير، وهو يقف بين القاضي والمحلفين والمدعي، كأنه فارس يخوض معركة عظيمة.

بعد أن شاهدت خمس ساعات وثماني وأربعين دقيقة، أدركت أن صور المجرمين في المحاكم تحمل نظرات باردة وخالية من المشاعر، مرفقة بابتسامات مستهترة. أرجوكم أن تذهبوا إلى صورة أي مجرم في المحكمة وتنظروا إلى تلك النظرات. أضمن لكم أننا إذا تعمقنا في جرائمهم، سنجد ثلاثة عوامل مشتركة: (التنظيم، العنف، التغطية الإعلامية الضخمة جدًا)..

كأنها مصفوفة يكمل أحدها الآخر، وأعتقد أن هذا التحليل والاستنتاج الذي وصلت إليه بعدما بحثت في سيرة 39 مجرمًا متسلسلًا انطبقت عليهم العناصر الثلاثة المذكورة سابقًا، ما ساعدني على تحليل شخصية ودوافع سفاح الجيزة، الذي هزت جرائمه العالم العربي في نهاية 2020. هذا السفاح قتل ٤ أشخاص: رجل وثلاث نساء من بينهن زوجته. قتل أولًا صديقه الذي عاد من الخليج، بعد أن اكتشف أن القاتل كان يسرق من إيجارات أملاكه التي تركها في عهدته. سممه بالسم في علبة كشري كانت آخر وجبة يتناولها، ثم سرق هويته. ثم قتل زوجته التي عرفت بجريمته، وهددته أنها ستخبر الشرطة عنه، ودفنها مع صديقه في شقة واحدة. ثم هرب بالهوية المسروقة.

هذه القضية كانت مليئة بالتناقضات، ولم يكن هناك أي شيء مشترك بين القاتل

وضحاياه. لم يفضل نوعًا معينًا من الضحايا، ولم يستخدم سلاحًا محددًا في جرائمه قد يشرح ماذا كان يدور داخل عقل سفاح الجيزة!

كنت حريصًا آنذاك على متابعة مستجدات هذه القضية، وأنتظر أن أرى رقصة السفاح الأخيرة في المحاكمة. لكن في الجلسات الأولية، كان يرتدي قناعًا للوجه بسبب الاحترازات الصحية، كان ذلك محبطًا لي، ولكن في الجلسة الختامية التي حضرها الإعلام وأهالي الضحايا، كان «قذافي» -وهذا هو اسم سفاح الجيزة- يدير ظهره للجميع، وذلك تصرف لم أشاهده في أي محاكمة لأي قاتل. قذافي يفوت الفرصة ويدير ظهره للإعلام والجماهير، لا ملامح ظاهرة.. لا صورة.. لا سلوكًا! لماذا يفعل ذلك؟ لا يمكن أن يكون سفاح الجيزة مختلفًا عن بندي لكن ما يقوم به يحمل سمة تخصه. ظللت أترقب أن يدير رأسه عند وقت النطق بالحكم، لكنه لم يؤتِ بأي حركة، كان ظهره هو الشيء الوحيد الذي رأيناه. لماذا لم يلتفت قذافي؟ لماذا لم يقدم مشهده الأخير الذي سيذكرنا بمجرم عربي استطاع أن يعيش بهوية رجل ميت ويتزوج عدة مرات؟

قررت العودة إلى البداية في تحليل جريمة قذافي التي كانت في الأصل نصبًا واختلاسًا، ثم تطورت إلى قتل وسرقة هوية، هذا الفعل كان غير منطقي بعض الشيء، لأن قذافي كان يمكنه أن يقتل صديقه ويخفي جثته، ويستمر في إدارة أملاكه، حتى يكبر ورثة صديقه المقتول. لكن ما فعله -سرقة هوية ضحيته- كان له صلة بمشهده الأخير. أراد قذافي أن نتذكره بوجه ضحيته الرجل الغني والناجح، الذي يظن القاتل أنه يستحق هذه الحياة، وليس قذافي الفقير والبائس. لذلك اختار أن يتخلى عن المشهد الملحمي. هو لا يريد أن نرى صوره بالبدلة الحمراء (المحكوم عليه بالإعدام)، بل يريد أن نرى صوره وهو يتزوج من أخت ضحيته الثالثة، أو في صورة مع مجتمع ضحيته الرابعة التي خنقها في مستودع.

الفصل الثاني

لم أفهمه من العلم، بل فهمته من عقل مجرم.

(1)

أشم الخوف.. أبحث عن الخوف.. هذا أنا

«اثنان يميزان رائحة الخوف: الحيوان المفترس والمبتز»

في 14 مايو 2018، كنت أقرأ في كتاب لقاض مصري متقاعد، وذكر فيه إحدى القضايا التي عرفتها، وكانت عن جريمة هتك عرض وابتزاز. فسألت نفسي: كيف يفكر المبتز؟ ولماذا لم يوثق الآباء المؤسسون هذا السلوك؟ ومن هم المبتزون؟ هل هم من يطلبون فدية؟ أو من يهددون شخصًا بشيء يهدم حياته؟ وما ذلك الشيء؟ هل هو محتوى مكتوب أم مصور؟ هل هو مادي أم معنوي أم أخلاقي أم عاطفي؟

أثار هذه الأسئلة في ذهني القاضي المتقاعد بسبب تلك القضية، فقررت أن أبحث أكثر، وأستفيد من خبرات زملائي في الاتحاد الدولي للقانون الطبي خصوصًا من يعمل في دولته مدعيًا عامًا أو محامي دفاع، استعنت بأصدقاء من دول مثل إيطاليا والبرتغال وإسبانيا ومصر والهند وتونس، وبعض الأصدقاء المحامين من الخليج الذين تجمعني بهم علاقة شخصية. وصلتني تعريفات كثيرة ووصلتني قضايا متشابهة وغير متشابهة كان الرابط بينها هو الابتزاز، أردت أن أجد تعريفًا موحدًا لهذا السلوك، يشرح معنى الابتزاز في قانون دولهم، ومن خلاله أستطيع أن أفهم سبب استخدام هذا العنصر من مجرمين آخرين. فوصلت إلى تعريف بسيط في البداية، يشرح الخاصية المشتركة بين كل هذه القضايا، وهو:

استخدام العنصر المعنوي أساسًا لإجبار الضحية على فعل شيء أو الامتناع عن ردة فعل، وهذا النوع من العنصر المعنوي يحتاج إلى أداة مادية تجعل الضحية داخل دائرة مفرغة من المشاعر المتداخلة.

نعم، ربما لا يكون التعريف واضحًا من أول قراءة له لكن بشكل مبسط هو استغلال شعور معنوي عند الضحية مثل الخوف أو العار أو الخجل، بواسطة عنصر مادي يهدد حياته أو سمعته مثل علاقة غير شرعية أو وثائق مسربة أو صور أو كتابات. ويظهر تأثير هذا العنصر المادي في تقديم الضحية لما يطلبه المبتز ومحاولة إرضائه قسرًا.

تتميز هذه العلاقة بين المبتز وضحيته بأنها تنشأ بعد مدة من ارتكاب الجرم الحقيقي، وليست حديثة القرار من المجرم، بل إنه يحدد ضحيته في أي سلوك جنائي مثل العلاقة غير الشرعية أو التجارة المجرمة أو التعاملات المحرمة مثل استغلال النفوذ أو التزوير، ثم يبني معها علاقة ثقة عميقة. هذه الثقة هي التي تدفع الضحية إلى ارتكاب الأمر الجنائي، وهذه العلاقة هي التي تمكن المبتز من معرفة مخاوف الضحية من أن تتعرض حياتها الاجتماعية أو الوظيفية لتشويه السمعة. ولأن العلاقة قوية بينهما، فإن الضحية لا تشك في أن المبتز سيستغلها. وما يحصل في الواقع، هو أن الثقة تتحول إلى خوف من الفضيحة. بمعنى أن الضحية يكون خوفها مضاعفًا بشكل أساسي على طبيعة العلاقة والثقة التي جعلت كل هذه المفاتيح في يد شخص آخر.

وللأسف توقفت في تلك الفترة عند هذا الحد، لم أكن قد وصلت إلى نهاية المطاف، ولكن على الأقل لدي تعريفي الخاص لما أرغب في البحث عنه، ولكني لم أجد أمثلة في المقابلات تؤكد صحة تعريفي.

وصلنا الى عام 2021 وبالتحديد في العاشر من أغسطس، كانت جائحة كورونا قد ساهمت كثيرًا في استخدامي الاجتماعات الافتراضية. في ذلك اليوم، كان لدي اجتماع افتراضي مع مدعٍ عام من إحدى الدول العربية لمناقشة قضية يريد رأيي فيها، كانت القضية جريمة ابتزاز جنسي، وكان لدى المجرم ٨ ضحايا نساء، كان يربطه بكل منهن علاقة غير شرعية، استمرت نحو 18-4 شهرًا. كان المجرم شابًا في الخامسة والثلاثين من عمره، يعمل في بنك في تلك الدولة. وفي يوم من الأيام وبالتحديد في 27 يوليو من نفس العام، انهارت أحدث ضحاياه أمام أسرتها، وطلبت منهم المساعدة، بعد أن هددها المجرم بنشر مقاطع فيديو لعلاقتهما على مواقع

التواصل الاجتماعي.

سألت المدعي العام إن كان المجرم طلب فدية مادية من ضحيته أم لا. فأجابني: «لا... الغرض أن تعمل في المرافقة المدفوعة». لم أفهم ما يقصده في البداية، لكنه شرح لي أن المجرم كان يستخدم ضحاياه لإغراء بعض الأشخاص وابتزازهم ماديًا. وهو نفسه كان يبتز ضحاياه بالفيديوهات والصور التي التقطها لهن.

ما أثار استغرابي في هذه القضية هو أن المجرم نفى وجود أي فيديوهات مسجلة، وادعى أن الضحايا كن يتعاملن معه «بدافع المصلحة المشتركة»، وأنهن كن يقمن بهذه المهام بإرادتهن. وأكد المدعي العام أن هناك تحويلات مالية بين المجرم والأطراف اللاتي تعرفوا عليهن واستخرجوا أرقامهن، وأن هذه التحويلات كانت بشكل شبه منتظم. وأشار إلى أن حسابات الضحايا لم تشهد هذا النوع من التدفق المالي من قبل. طالب محامي الدفاع عن المجرم بتخفيف الحكم عليه، بحجة أنه كان جزءًا من عصابة.

طلبت من المدعي أن يرسل لي الخلفيات الاجتماعية لكل ضحية، وتواريخ بدء العلاقات في الاعترافات وأول طلب ابتزاز، عدا الضحية الأخيرة التي لم تستجب للمجرم. أردت أن أعرف المدة الزمنية بين لقاء المجرم بالضحية وطلبه منها المرافقة المدفوعة. أرجعني ذلك إلى عام 2018، وتعريف الابتزاز الذي وضعته سابقًا. وفهمت من المدعي أن هذه الجريمة تصنف قانونيًا جريمة احتيال ونصب وإنشاء شبكة أفعال رذيلة. لكنها تحمل أيضًا خصائص التعريف الذي كتبته.

بعد أن أرسل لي المدعي العام المعلومات التي طلبتها، رتبتها حسب تاريخ العلاقة مع المجرم من الأحدث إلى الأقدم. فلاحظت أن للمجرم نمطًا واضحًا في اختيار ضحاياه. كن جميعهن من أسر مرموقة ومتعلمة، وكانت 4 منهن يشغلن وظائف مرموقة، مثل طبيبة ومصممة ديكور داخلي ومعلمة ومحاضرة.

فوصفتهن بأنهن ضحايا منخفضات الخطورة، وهذا النوع من الضحايا يحتاج إلى جهد كبير وثقة عالية وذكاء وصبر من المجرم لكسب ثقتهن وإغرائهن. وفهمت أن المجرم كان يستمتع بالتحدي الذي يشكله هذا النوع من الضحايا، وأن مكانتهن

الاجتماعية كانت جزءًا من خطته لابتزازهن وابتزاز آخرين عبرهن. فالضحايا كن يخفن من فضح سرهن، وكان المجرم يستغل هذا الخوف لإجبارهن على المرافقة المدفوعة. والضحايا لم يشككن في نيات المجرم، لأنه كان من نفس طبقتهن الاجتماعية، ولم يطلب منهن مالًا. والأشخاص الذين تورطوا مع الضحايا في علاقات جنسية، لم يظنوا أنهن جزء من مصيدة ابتزاز لأنهم اعتقدوا أن نساء من هذه المكانة الاجتماعية لن يتقربن منهم لغاية مشتبه فيها.

وهنا فهمت أكثر أن الابتزاز مثل شبكة عنكبوت تنسج بدقة أهدافًا محددة وليس مصادفة، بعدما قضيت خمس ساعات في دراسة ملفات الضحايا، اتصلت بالمدعي العام في اليوم التالي، وسألته عن نوعية المستند أو التسجيل الذي يستخدمه المجرم لابتزاز الضحايا بحسب إفاداتهن لأن المجرم نفى ذلك. فقال لي إن المجرم كان يستخدم فيديوهات رفعها على خادم (سيرفر) في منزله، وأن الضحايا شاهدنه، وخفن من تسريبه. فسألته إذا كان قد عثر على شيء من هذا القبيل في منزل المجرم، فقال لي إنه وجد خادمًا واحدًا فقط، وكان معطلًا. فأدركت أن المجرم كان يريد إثبات جديته بهذه الخطوة. فطلبت من المدعي العام أن ألتقي الجاني عبر اجتماع افتراضي، وكان مترددًا في ذلك، لأن هذا يحتاج إلى إذن من القاضي، وحضور محامي الجاني. فقلت له إن هذا لا يشكل مشكلة بالنسبة إلي، وأنني أرحب بوجود محاميه، لكي يشعر بالأمان، وأستطيع أن أجعله يقع في أخطائه. ولكن طلبت منه أن يجعل هذا الأمر رسميًا، لأنني متأكد من أن المجرم سيغرّد كل شيء عندما نبدأ الحوار.

بعد أربعة طلبات، استغرقت سبعة أسابيع، جاءت الموافقة على الطلب الخامس، ولكن لم تكن كاملة الصلاحيات، بل كان هناك شرط لم أتوقعه، وهو أن القاضي حدد تسعة أسئلة فقط يمكنني طرحها على المجرم، على أن يراجعها محامي الدفاع، ويحق له ولموكله رفض الإجابة عن بعضها أو كلها. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الأسئلة تقدّم في فرصة واحدة فقط دون تعديل. لم يكن أمامي إلا القبول بهذا الشرط، لكن ما أزعجني هو أن المدعي العام أعطاني مهلة 24 ساعة فقط لإعداد الأسئلة. فاضطررت إلى التصرف بمهنية، وما إن أنهيت المكالمة معه، بدأت برحلة

المقابلة الاسترجاعية. والسبب في استخدام هذه التقنية هو أن الفرصة واحدة فقط، والأسئلة يجب أن تكون متقنة حتى تظهر أسئلة عادية، لكنها في الحقيقة هي استجواب لخيال المجرم. ومن الممكن أن يكتشف المجرم هذا الأمر قبل الموافقة على الإجابة أو في أثناء الحوار، وربما لا يكتشفه أبدًا. ولحسن الحظ، لم يكن المدعي العام على علم بهذه التقنية، وهذا كان أمرًا احتياطيًا لي. فوعدت نفسي بأن أستغل هذه الفرصة بأفضل طريقة ممكنة، لأني لا أعرف إن كانت ستنجح أم لا.

انطلقت إلى منطقة هادئة تبعد 34 كيلومترًا عن مدينتي، حيث لا توجد سيارات أو مبانٍ فخمة. وصلت إلى هناك في الساعة 7:48 مساء، وتوقفت بجانب الطريق. أطفأت محرك السيارة، وشعرت بانخفاض حرارة الصيف في شهر سبتمبر. كانت ليلة مميزة، وكنت مستعدًا للمرحلة الأولى من خطتي، وهي الاسترخاء. فهذه المرحلة تساعدني على استحضار خيال الجاني الذي أريد مواجهته. بدأ قلبي يهدأ، وأنفاسي تنتظم. أحسست أنه بجواري الآن. فما هو السؤال الذي سأطرحه عليه لأكسب ثقته؟

س- أخبرني من أنت؟ كم عدد أفراد أسرتك؟

أريد أن أفهم منك تفاصيل توضح لي سبب استمرارك في علاقات غير شرعية مع 8 ضحايا وليس ضحية واحدة فقط! ولماذا اخترت هذه الضحايا بالذات وهن من الطبقة المستقرة والمتعلمة التي تكون عادة حذرة. وكيف استطعت أن تخاطر بحياتك ومستقبلك في هذه الجرائم المتعددة والمتشابكة. لذلك، أحتاج إلى معرفة رأيك في نفسك وكيف تصف أسرتك وعلاقتك بهم. فالكلمات التي تختارها لن تكون عشوائية، بل تعبر عن شعور حقيقي دفعك إلى اختيارها.

س- بعيدًا عن محاكمتك وما نُسب إليك من تُهم، هل كنت تهتم لأمر الفتيات الضحايا فعلًا؟ خصوصًا أنك كنت تقضي كثيرًا من الوقت معهن وتولي اهتمامًا كبيرًا لهن وتمنحهن قدرًا كبيرًا من الاستماع والعاطفة لكسبهن وكسر حذرهن.

ما أبحث عنه هنا هو الدخول إلى روزنامة الجاني الإجرامية وفهم منطق تفكيره وطريقة تخطيطه لجرائمه والوقت الذي يستغرقه والموارد التي يحتاج إليها لتنفيذ مخططاته الشريرة، وهذا ما يثير تساؤلات عديدة. فهل كان يشعر بأي مشاعر

حقيقية في أي مرحلة من مراحل علاقته؟

هل خطر على بالك أن تواجه ضحية ترفض ذلك أو تفشل في جعلها تنخرط في العلاقة؟ إذا كان الجواب نعم، فما الخطة التي وضعتها لمنع انكشافك؟

أعتقد أن هذا هو السؤال الذي سيشعر فيه بالسيطرة لأن جرائمه في التهمتين الموجهتين إليه كانت تدور حول رغبته في السيطرة على ضحاياه سواء في العلاقات المتعددة أم في الابتزاز. كان كل شيء يدل على أنه يسعى للسيطرة والهيمنة، ولكن ما الأداة التي استخدمها لتحقيق هذا الغرض؟ هذا ما سنعرفه من إجابته عن هذا السؤال.

«هل تسمح لي بسؤال آخر؟»

لن أكتب هذا السؤال بقلمي، بل سيكون هو من يدفعني إليه برغبته الشخصية، لأنني أشعر به الآن بجانبي يتحرك في مقعده متلهفًا لمواصلة سيطرته علي، حتى أنا! نعم، هو لن يقاوم رغبته في السيطرة والتفوق، وهذا ما سيكون حصان طروادة الخاص بي.

بعد أن عدت إلى منزلي، أرسلت الأسئلة الثلاثة، كانت الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل، ولكن الجاني لم يغب عن ذهني لحظة. وما إن اضطجعت في سريري ووجهت نظري إلى خزانة ملابسي، حتى تذكرت أسطورة مخيفة كانت جدتي -رحمها الله- ترويها لنا. كانت تقول إن هناك عجوزًا شمطاء ذات شعر مجعد ووجه مخيف تسكن خزانات الملابس في غرف الأطفال، وتبحث عن الطفل أو الطفلة الذين يعصيان أوامر والديهما في النوم. وكانت جدتي تخبرنا بهذه القصة كلما زرناها، وبعد أن بلغت التاسعة عشرة من عمري، كشفت لي سر هذه القصص وضحايا تلك السيدة المرعبة. وكان السبب هو أنها تضمن بذلك ألا نخرج من غرفتنا التي ننام فيها مع والدتنا وألا نزعجها!

استغربت سبب ظهور هذه الذكرى في هذا الوقت، لكنني خمنت أن عقلي أخرجها لأن الجاني الذي استرجعته بواسطة المقابلة ما زال يجول في أروقة العقل الباطن،

وأن هناك صلة قوية بينه وبين ما رأيته. ولكنني ممتن له على أي حال لأنه أعاد لي جانبًا من ذكريات طفولتي. خلدت إلى النوم دون أن أهتم بما يدور في عقلي، ولم أشعر بشيء حتى اخترق صوت رنين هاتفي حلمي، فاستيقظت في الساعة التاسعة صباحًا، وكان المتصل المدعي العام، وقد سبق أن اتصل بي ثلاث مرات. أجبت على الفور، بادرني بسؤاله مستغربًا مباشرة دون مقدمات:

- هل أنت جاد؟

لم أكن في وعيي الكامل، ولم أدرك ما يقصده بالضبط. شعرت كأنني لم أستيقظ من حلمي بعد. «ماذا يحدث؟» هكذا أجبته!

- يا محمد، منحنا القاضي فرصة واحدة فقط تتألف من تسعة أسئلة، وأنت أرسلت لي ثلاثة فحسب! وواحد منها عن خلفيته الاجتماعية! كأنني لم أخبرك بجميع التفاصيل حوله، حتى أسماء أفراد عائلته. هل تمزح معي؟

هنا تأكدت -للأسف- أن ما أسمعه ليس في حلمي، وعليّ الآن أن أشرح له ما يريده. «صديقي، من أجل هذا -شروط القاضي- لا بد لنا أن نقدم له ما لا يتوقعه المجرم ومحاميه، لأنهما بالتأكيد سيلجآن إلى السيطرة على الموقف. سنستغل هذه الفرصة لإثارة غروره وجشعه، وأيضًا سأطلب منك أن تذكر في مقدمة حديثك عني له أنني هنا من أجل كتابي الثاني، وأن قضيته تستحق أن تُنشر في كتاب وأن شخصيته ستبقى خالدة في التاريخ. سنحاصره بما يرغب فيه لنضمن أن يقوده غروره إلينا».

- لا أفهمك يا محمد! لست أفهم ما تفعله ولكن أذكرك أنها الفرصة الوحيدة لندينه بأقصى عقوبة ممكنة بدلًا من إقامة علاقات محرمة فقط.

كنت أنوي أن أوضح له المزيد، لكن رؤيتي لحماسه ورغبته في معرفة الحقيقة جعلتني أتراجع عن هذه الفكرة، خشية أن تعطي مفعولًا مضادًا وتزيد من شكوكه فيّ. فاكتفيت بقول جملة واحدة فقط: «ثق بي يا صديقي، لا أعدك بالنجاح ولكن بإذن الله سنصل إلى نقطة تحول في هذه القضية».

- لا أعرف سبب غرورك، لكن أثق بسمعتك الطيبة. لنرَ ما ستفعله! ستكون المقابلة في الساعة الخامسة بتوقيتنا، أظن أنها ستكون الرابعة بتوقيتك. وأرجو منك أن تكون في مكان به اتصال جيد للمقابلة الافتراضية. سأراك حينها.

انقطع الاتصال، وأنا ما زلت جالسًا على سريري، أحاول أن أسترجع جدول يومي، فما أخبرني به كان موعدًا مفاجئًا لم أكن أتوقعه بهذه السرعة. لذلك عليّ أن ألغي كل ما في يومي وأخصص وقتي لهذه الاستشارة، خصوصًا أن تقييمي سيعود إلى الاتحاد الدولي للقانون الطبي.

قبل أن تعلن عقارب ساعتي الساعة الرابعة مساءً بتوقيت مدينتي، وصلني رابط لاجتماع افتراضي عبر بريدي الإلكتروني، سيكون متاحًا الدخول إليه بعد نصف ساعة من الآن.

اخترت مقهى هادئًا جدًا، لا يزوره إلا الأشباح، حرصًا على اتصال جيد ومستقر، لا يشوش عليّ حبل أفكاري. لم أشعر بمرور الوقت حتى حان موعد الدخول إلى الرابط. وإذ بأربعة مربعات على الشاشة، في كل مربع شخص، كأننا فريقان في مباراة تنس ثنائية: أنا والمدعي العام في فريق واحد، والمجرم ومحاميه في الآخر. كان انتباهي منصبًا إلى المربع الذي يظهر فيه شاب أنيق -حتى في زي السجن- كان حريصًا على مظهره، شعره محلوق، ووجهه لا يبدي أي علامات غضب أو حزن، بل كان يبتسم كأنه رائد فضاء يروي لنا تجاربه من كبسولته حول القمر. وهذا الانطباع الأولي عزز ثقتي كثيرًا بأن المتهم أمامي شخص يفتن السلطة والمجد، وأن هذه الابتسامة المستفزة هي نتيجة المقدمة التي قالها المدعي عني له ولمحاميه. لكن كان لا بد لي من التأكد من هذا الافتراض وإلا ستنهار خطتي -الأسئلة- كبيت عنكبوت. فظللت صامتًا متظاهرًا بالخضوع لأوامر المدعي، وهو أيضًا يؤدي دوره في إظهار سيطرته المثالية عليّ.

ولأكون أمينًا معكم، كانت هذه الفكرة وليدة الموقف، ولم أخطط لها. كنت أراهن على أنه سيكشف عن نفسه دون حاجة إلى أسئلتي، بل سيطلب مني أن أسأله.

أعزائي القراء، يبدو أني فهمت أول نقطة في عقلية المجرم المبتز (استغلال فرصة

السيطرة والتمتع بها قدر الإمكان). بدأ المدعي العام التحدث بمقدمة تتعلق بالقوانين التي اتفق عليها الطرفان -الدفاع والادعاء- أمام القاضي، والتحذير من أي تجاوز من جانب فريق المدعي يهدد سير الإجراءات، والإشارة إلى ضرورة تسجيل ما سيدور في المقابلة للاستفادة منه في مراحل لاحقة من القضية. ثم أعاد المدعي تقديمي إلى محامي الدفاع والمجرم، وأنا اكتفيت بالتحية بـ «أهلا». ثم عاد المدعي ليسأل المحامي وموكله: هل الأسئلة واضحة لكم؟ فأجاب المحامي نيابة عن نفسه وعن موكله:

يمكن أن تحصلوا على إجابة هذه الأسئلة من مختص نفسي محلي في بلدنا -بلد القضية- ولا حاجة إلى الاستعانة بشخص من خارج بلادنا لهذا الغرض. ومع أنني أرى أنكم تضيعون وقتنا دون فائدة، فإننا نوافق على إجراء هذا الحوار.

في الحقيقة، لم يعجبني تصرفه الذي يظهر ازدراءه لي بطريقة ضمنية، ولكن الحمد لله أنّ عمري قد أعطاني حكمة أكبر، فابتسمت وطلبت إذن المدعي لأبدأ. وكانت إشارة (كتم الصوت) التي لم تستغرق سوى عشر ثوانٍ تقريبًا في مربع المدعي والمحامي تشبه صافرة انطلاق المباراة، لا أدري هل كان هناك خلل في الاتصال أم لا. ولم يدهشني ذلك بقدر ما دهشت من نفسي عندما بدأت أتحدث معه بلهجة مشابهة للهجته، وهو أمر ساعدني على زيادة ثقتي باستراتيجيتي. فقلت له مبادرًا: «أهلاً بك، أتمنى أن تكون في صحة وعافية».

- الحمد الله، ماذا عنك؟

«أنا! أنا في أفضل أحوالي في الواقع، الحقيقة كنت متلهفًا للحديث معك منذ أن علمت بقضيتك. أظن أن محاميك أخبرك عن عملي... أليس كذلك؟

لم يستطع إخفاء تغير لغة جسده التي انتقلت من عدم الاكتراث واللا مبالاة إلى التفاعل والافتخار، فانحنى نحو الشاشة، وأظن أنه لو لم تكن هناك شاشة لكان قفز إلى المقعد المجاور لي في المقهى، ثم قال:

- حقًا؟... عندي سؤال، سمعت من محامي أنك شخص مشهور، وأنت الوحيد

الذي يمارس هذا النوع من الأعمال، وأن لديك منشورات عن العقول الإجرامية كما تسميها. ما الذي يدفعك للحديث معي بهذا الحماس؟

رائع... رائع... رائع جدًا -صرخت في نفسي- لقد ابتلع الطعم ولا تزال الخطة تسير كما خططت. عدت إلى الواقع لأجيب سؤاله.

- «أبحث منذ زمن عن حالات مثل التي اتهمت بها، وأشكرك على كلماتك الجميلة التي تشير إلى تقديرك لي، ولكنني لست الوحيد في مجالي. أنت أيضًا فريد ومتميز، ولذلك أنا سعيد بالحوار معك».

زاد تفاعل لغة جسده، وشعرت أن محاميه يرغب في فتح الميكروفون ليأمره بالهدوء، ولكنني لم أبالِ بهذا، فهذا التفاعل سيقوده إلى الوقوع في الفخ الذي نصبته له حتى لو اعترض محاميه. فانكشف وجهه نحو الشاشة، وسمعت صوت القيود في يديه يصدر إيقاعًا بسبب حركاته التي تدل على شخص ينتظر هدية أو ممثلًا في حفل أوسكار على وشك استلام جائزته. فابتسم بشدة وقال: «هل هذا ممكن؟ ألا يوجد في بلدك أحد؟ أو حتى في أي بلد عربي؟ ... لا أدري، هل تمازحني أم أنك طوال حياتك تقابل النشالين والسارقين الأغبياء والمخمورين ومدمني المخدرات. هذا غير طبيعي!»

Telegram:@mbooks90

- «أقصد أن طريقة ارتكابك الجرائم التي اتهمت بها وكيفية ربطك بين عناصرها تدل على مستوى عالٍ من التنظيم والدقة. فأنت تصطاد ضحاياك وتسيطر عليهن، ثم تصطاد ضحايا آخرين من الذكور عن طريقهن وتحتال عليهم. في الحقيقة، لم أشاهد في بلدي أو في أي بلد عربي مثل هذه الحالات، وأود أن أضيف أن هذا النوع من الجرائم نادر جدًا في العالم كله، ليس هناك كلمات لأصف أهميتك لدي، وليس مجاملة إن قلت إنني منذ 2012 لم أقرأ أو أسمع بمثل حالتك...».

وهنا تدخل محامي المتهم وفعّل الميكروفون غاضبًا متجاهلًا إيّاي وموجهًا كلامه إلى المدعي قائلًا: «هذه مضيعة للوقت حقًا. هل جاء خبيرك إلى هنا من أجل هذا؟ أظن أن لدي الحق في إنهاء هذا الأمر الآن!»

قطع موكله حديثه قائلًا: «انتظر قليلًا، الأمر ممتع بالنسبة إلي. اعذر محاميَّ وأتمنى أن نبدأ بما جئنا من أجله هنا. فأنا لا أملك هنا -في السجن- سوى كثير من الوقت، وكما تعرف.. المحامون حذرون (يبتسم)».

هنا كان عليَّ أن أدخل في صلب الموضوع وأطرح عليه أسئلتي، وكان أولها عن نفسه وعن عائلته. وبعد أن انتهيت من سؤالي، لاحظت أن لغة جسده هدأت وعادت إلى اللا مبالاة والدفاعية، ثم تنهد قائلًا:

- هل تعلم أن هذا النوع من الأسئلة مقرف؟

- لماذا؟

- هل تظنني جاهلًا؟ أنا حاصل على شهادة عالية وقرأت في علم النفس، وهذا السؤال يوجه إلى المرضى النفسيين والمجرمين على حد سواء. وأنت قبل قليل تقول لي إنني متميز وأنك لم تر مثلي منذ سنوات، والآن تسألني سؤالًا سمعته هنا وأيضًا متأكد من أنك سألته للحثالة والبله الذين قابلتهم!

- صدقني ما تعرفه عن هذا لا علاقة له بسؤالي، فأنا أملك طريقة خاصة مثل خلطات المطاعم السرية».

- لنر.. ماذا تريد أن تعرف عني، هل أنا طفل عنيد أو مهمل، هل تعرضت للتحرش؟ دعنا نوضح الأمر من الآن!

- لا لا لا.. أرجوك أن تنسى كل ما قرأته عن علم النفس، لست متخصصًا فيه، بل أنا باحث ومحلل أحتاج إلى أن أعرف عن حياتك وطموحاتك ووظيفة والدك مثلًا. هل أنت متدين؟ فقط أخبرني عن مثل هذه الأمور.

- حسنًا.. سأجيب حسب ما فهمت عن سؤالك الذي تزعم أنه مميز، فأنا الابن الثالث لعائلة مؤلفة من والدي وثلاثة أبناء وثلاث بنات. والداي متدينان جدًا ولا يفوتان قداسًا أو صلاة في الكنيسة. في الحقيقة، كان تدينهما الشديد يجبرنا على الذهاب إلى الكنيسة خوفًا من غضب والدي الذي كان عنيفًا، وأقصد هنا ليس فقط بالضرب، بل حتى بمنعنا من اللعب أو مشاهدة التلفاز. وحقيقة، حتى لا تسيء فهمي

وتربط كل شيء بعنف والدي -يعدل جلسته- فأنا أحبه كثيرًا، فهو والدي، وكانت نوبات عنفه نادرة لأننا كنا منضبطين جدًا.

- ماذا عن والدتك؟ هل كانت تؤيده أم لم تكن تستطيع التدخل؟ وهي ضحية عنف مثلكم؟

- لا على الإطلاق، لم يكن يعنفها، على الأقل ليس أمامنا، ولكن حتى هي لم تكن في حال أفضل منا على الإطلاق!

- كيف ذلك؟

كان لديها أوامرها الخاصة كأن يكون الغداء جاهزًا عند وصول والدي من العمل، والعشاء يكون في وقت محدد، وكنت أشعر أحيانًا أن أمي تخدعنا بسبب دقة المواعيد، وأنها تخبئ جزءًا من الغداء لإعداد العشاء، لذلك كانت تلتزم مواعيدها دائمًا.

- هل كانت نفس الأطباق؟

قال ساخرًا:

- لا مستحيل.. وإلا كنا غضبنا جميعًا، نحن لسنا عائلة السنافر (يضحك) لكن بطريقة ما كان لدى والدتي خطة متقنة حتى تكون الوجبة جاهزة في وقتها، هل تعرف الآن وأنا أسترجع هذه التفاصيل -مواعيد الوجبات الثابتة- أشعر كأن منزلنا كان جزءًا من معسكرات هتلر «يضحك».

- حسنًا، إذا طلبت منك أن تصف والدك ووالدتك بكلمة أو بمعنى أوضح بوصف واحد، فبماذا ستصفهم لي؟

- متسلط، تقليدية!

- اشرح لي أكثر.

- متسلط أقصد أن أبي...

- لا لا لا عذرًا، أفهم وصف والدك لكن ماذا تعني بتقليدية؟

- حسنًا، كانت والدتي مطيعة، تفعل الأوامر وتبتعد عن النواهي، كانت كالمعادلة الحسابية البسيطة: 2=1+1، كانت هذه العلاقة تضمن أن يسير البيت بسلام دون أي عقاب ونحن علينا أن نلتزم الأوامر القليلة التي أوكلت إلينا.

- حسنًا، هل كان لديك مشكلة في تكوين صداقات بسبب طبيعة الممنوعات لديك؟

- لا على الإطلاق نحن الأبناء نرغب دائمًا في تجربة كل جديد، ألم تفعل ذلك أنت؟

- نعم، أفهمك لكن عن نفسي كان هناك دائمًا ذلك الضمير الذي يعاتبني لأن والدي كان أيضًا متدينًا مثل والدك.

- أشعر بك..

أخذ الجاني لحظة من الصمت بعد هذه الجملة، وتقدم بجسمه نحو الشاشة ثم أسند ذراعيه على الطاولة قائلًا:

- الآباء دائمًا على حق، إن انحرفت عن طريقك المستقيم فستكون معرضًا للخطر، وعقاب الآباء أكثر رحمة وأفضل منه، لأنك إذا كسرت القواعد في شبابك وشيخوختك فلا بد أن تستحق العقاب الشديد من أي شخص يمثل الشيطان!

الشيطان... عقاب... قواعد مكسورة، للحظة شعرت في داخلي أو ما أسميه حدسي التحليلي أن الأوان قد حان للانتقال إلى السؤال الثاني، ولأكون صادقًا معكم - أصدقائي القراء- لم يخطر على بالي أنه سيسهل علي الانتقال إلى السؤال الثاني.

- هل تظن أن ما يُنسب إليك من ضحايا هم من الذين يستحقون العقاب لأنهم كسروا القواعد؟

- أخبرني أنت؟ ماذا تعتقد؟

- لا أدري في الحقيقة، لكن حسب ما كان مكتوبًا فإن الفتيات كانوا من طبقات اجتماعية رفيعة ذوات وظائف مرموقة وتعليم عالٍ وسيرة طيبة، حتى بالنسبة

إلى ضحايا تهمة الابتزاز كانوا رجال أعمال ومنهم مديرون تنفيذيون وأصحاب سير اجتماعية نظيفة.

استرخى على كرسيه ورفع ذراعيه عن الطاولة، وبصوت ضعيف أو ربما كان عالٍ لكن الشبكة حينئذ ساءت، قال:

- خونة..

- عفوًا، لم أسمعك جيدًا!

- نسيت أن تقول.. كانوا خونة.

- من هم؟

- جميعهم!

- آسف لم أفهمك جيدًا، كيف جميعهم خونة؟

عاد مقتربًا من الشاشة، وأعاد ذراعيه لتمتدا على الطاولة، ونظر إلي نظرات استمرت ثوانٍ كأنه يحاول أن يسيطر على غضب بدأ يظهر في تنفسه، ثم اقترب بوجهه من الكاميرا أكثر، وقال:

- خان الرجال زوجاتهم من أجل فتيات جميلات، وخانت الفتيات ذوات الشهرة المجتمعية آباءهن بقبول العلاقة غير الشرعية. هل فهمت من هم الخونة؟

- هل تقصد بذلك أنهم كسروا القواعد؟ خان الرجال ميثاق الزواج، وخانت الفتيات ثقة الأهل؟

- نعم.

- ما الأمر الذي يجعلهم مناسبين؟ بمعنى، كيف تعرف أن الضحايا لن يقاوموك، وأنهم سيلبون طلباتك؟

- ما ذكرت عنهم، سمعتهم وصورتهم المجتمعية ومخاوفهم من خسارة كل هذا وأن يظهروا بمظهر المقامر الغبي، فهم لم يكونوا بحاجة إلى أي شيء مما أقدموا

عليه: العلاقات غير الشرعية، لذلك عندما ترتكب خطأ وتعلم أنك كسرت قاعدة، فالخوف من اكتشاف خطئك يجعلك في دوامة، وهذه الدوامة تدفعك للتصرف دون عقل واعٍ، تظن أنه يمكنك إصلاح الخطأ بنفسك، ولكن كل ما تفعله هو محاولة تجنب مواجهة خطأ فعلته فترتكب فعلًا يشعرك بالراحة، ومن ثم تكتشف أنك أصبحت في مستنقع تغرق فيه كلما قاومت أكثر.

- جميل، هل تسمح لي أن أسالك.. هل كانت ضحاياك في حالة عاطفية مناسبة؟ بمعنى، عندما قابلتهن كيف عرفت أنهن الآن في حالة قابلة للاستغلال؟

- فهمت سؤالك. في الحقيقة كنت أستمتع بالوقت معهن. هذا لا يعني أني أحبهن، بل أشعر أن لدي جدولًا يوميًا من التفاعل والأوامر مثل ما كان لدي منذ ولادتي. في البداية يكون التواصل طبيعيًا عبر مواقع التواصل الاجتماعي. لا أكذب في شيء. لا يوجد هناك حبيبة سابقة، توفيت حبيبتي وأنا وفي لها. لا أظهر أي نوع من الانجذاب. مع مرور الوقت هناك إشارة ما ليست إشارة مادية بقدر ما هي نفسية.

- كيف ذلك؟

- ما أفعله هو التواصل بشكل مستمر وثابت حتى إن كان هناك رفض. المهم ألا أكون متهورًا لمدة طويلة وواضحة. بعد ذلك أنقطع عن التواصل فجأة. والتي تعود منهن إلى التواصل معي بعد ذلك تكون هي المناسبة!

- هل يعني أنك حاولت أكثر؟

- الأمر في البداية مثل الصيد في بحيرة لا تعلم هل يوجد فيها أسماك أم لا وهي نقطة في مصلحتك. لا يوجد أي انطباع لهدف معين ولا وقت محدد لتنفيذ ذلك. ترمي شبكتك وتسترخي وتنتظر من سينفصل عن سربه ويتجه إلى الطعم -الحاجة العاطفية- بنفسه. وهذا أهم عنصر: أنهن جميعًا سعين لي وليس أنا من أجبرتهن على ذلك. لذلك كان الخوف من الفضيحة هو الرابط بيننا (يبتسم ويشير بسبابته إلى رأسه) هل فهمتني؟

للمرة الثانية يذكر موضوع الخوف، ودون أي مقدمات قفزت إلى ممرات عقلي

ما تذكرته بالأمس قبل نومي عن العجوز الشمطاء التي كانت جدتي الراحلة -رحمها الله- تقص علي وأخوتي قصصها، وكيف كانت تتربص بضحاياها فقررت أن أجعلها الطُعم للسؤال الثالث فقلت:

- أحسنت في وصف المعاقبة لمن يكسر القواعد! هل تعلم.. خط في عقلي وأنت تتحدث موقف حقيقي، كانت جدتي قبل وفاتها تروي لنا قصصًا عن عجوز قبيحة الشكل شعثاء الشعر قصيرة القامة، لديها مهمة واحدة هي اختطاف الأطفال الذين يسهرون بعد أن ينام الكبار، وتأخذ ضحيتها لتأكلها عبر بوابة موجودة في الخزانة بين عالمها وعالمنا.

ابتسم فيما أنا أروي ما سبق من أحداث كأنه مستمتع بأسطورة جدتي، حتى لغة جسده كانت تشير إلى حماسه لدرجة كاد يقف على كرسيه صارخًا «احكِ لي»، لكنه بصوت ممزوج بين الحماس والانتظار قال:

- هل كنت ممن ينام مبكرًا (يبتسم).

- لا، ولكني للأسف كنت ممن يحفظون تفاصيل حكايات الجدة والعجوزة المخيفة، لسوء حظي.

- كيف كان شعورك وأنت بمفردك مستيقظ؟

- أووه في الحقيقة كنت أشعر بأنني مهدد في أي حركة، ومع أي صوت أشعر أنني سأهاجم!

- هل كان الخوف يلازمك؟

- بالتأكيد!

- هل تعرف أن جدتكم كانت متأكدة كذلك؟ كانت تعرف أن الأجواء مهيأة لتنجح قصتها، وما فعله عقلك هو أنه صدق كلام شخص تحبه مثل جدتك، وبعد ذلك ابتلع الطُعم وبقي في خضم المخاوف دون أن تتحرك أو حتى تذهب بفضول ورغبة للتحقق من مخاوفك أو تنير الغرفة لتتأكد من أنه لا يوجد شيء هناك.

كان متحمسًا وهو يتحدث بذلك. هل تعرفون.. عندما تشاهدون أحد أصدقائكم يتحدث عن شيء متخصص به ويشعر بشغف تجاهه، ذلك البريق في العينين والحماس في الكلام والمبالغة في تعابير لغة الجسد. كان هذا ما أراه ولو أني قطعت الصوت لكنت عرفت من الشكل أن هذا الموضوع يهمه جدًا.

- حسنًا، لدي سؤال -حرفيًا لم أكن مستعدًا له- ولك الحق برفضه أو قبوله. ما رأيك؟

كنت أدعو بشدة في داخلي أن يقبل، وكنت آمل من أول سؤال أن خطتي نجحت واستطعت أن أفقده حذره وأجعله يبتلع طعمي، ابتسم ثم قال:

- لا مانع لدي، إنك تعجبني والحديث معك مسلٍ فعلًا. تفضل، ماذا تريد أن تسأل؟

- شكرًا لك، لدي سؤال خطر على بالي خلال الحوار. هل من المعقول أنك كنت متأكدًا لهذه الدرجة من أن إحدى هؤلاء الضحايا لن تبادر بتقديم بلاغ عنك عند ابتزازها؟

- صديقي، أنا فعلت بالضحايا بالضبط ما فعلت جدتك بك أنت وإخوتك، الخوف يا عزيزي... الخوف. عندما يسيطر عليك تصبح أغبى من أن تتصرف بسرعة، وأجبن من أن تواجه أخطاءك بشجاعة. عندما تنحرف عن المسار الصحيح فأنت تستحق العقوبة. هل تخاف مني أو من مجتمعك أو من نفسك أو من الإله؟ هذا يخصك أنت ولكن الأكيد أنا أقودك بلجام هذا الخوف.

- ألم تخف أنت؟

- أنا أعرف ماذا يسبب الخوف.. الأخطاء.

- لكن ألم تخش أن تقع؟ غير معقول ألا يكون لديك ولو قليل من المخاوف من بلاغ أحدهم؟

- كنت أدرك وأفهم أنه سيأتي وقت أسقط فيه، لديّ قناعة أن هذا الوقت سيحين، وهذا هو الفرق: أنا لا أخافه، أنا أعرف أنه قادم. وهذا ما يجعلني أزيد الخوف في

نفوسهم. وكلما زاد الخوف في نفوسهم من خسارة سمعتهم وصورتهم الاجتماعية وكل مكاسبهم فسيحاولون أن يفاوضوني.. وهنا أكسب وقتًا أطول.

في هذه اللحظة وقبل أن أطرح سؤالي فتح محامي الدفاع ميكرفونه قائلًا بصوت غاضب متجهم:

- يكفي.. تحدثت كثيرًا -مخاطبًا وكيله-، وأنت -يقصدني- تجاوزت عدد الأسئلة المسموح بها، لذلك أرى الآن أن تنتهي هذه المحادثة التي من بدايتها لم أعرف سببها.

كانت نوافذ الاتصال تغلق تدريجيًا. أولًا، نافذة مجرمنا الذي ظلّ مبتسمًا حتى غادرت صورته النافذة. ثم محامي الدفاع المتضايق، ومن ثم المدعي العام الذي كان وجهه يشبه من أخبر بشيء مخيب للآمال بشدة. وهذا كان متوقعًا حين أغلق نافذته معلنًا قبلها محضر الانتهاء من هذا الإجراء بالتاريخ والوقت.

بقيت عدة ثوانٍ أتأمل وجهي المنعكس من كاميرا جهازي في نافذة واحدة كبيرة منتظرًا خروجي، وبعد ثوانٍ من إغلاقي الاتصال، اتصل المدعي العام على هاتفي.

- ألو

- أحتاج إلى تفسير لكل ما حدث الآن إذا سمحت!

- حسنًا، المادة التي لديك الآن هي في مصلحتي ومصلحتك وأعت..

- أستاذ (بنبرة جدية) أنا لست مُتابِعًا لأحد برامجك، أنا أحتاج إلى أن أقدم للقاضي مذكرة عمّ حدث بعد ثلاثة أيام. وتذكّر أن هناك فتيات ورجالًا وأسرًا ترغب في أن تعرف أن ما حدث هو استدراج جنائي هم ضحاياه. صوت إغلاق الهاتف!

في الحقيقة أعزائي كنت مستاءً جدًا من تصرفه، ولكنّ جزءًا مني يعذره. من سيرضى بسماع مُحلّل سلوكيات إجرامية هذا ما زال عمله في كثير من الدول هو مجرد عمل درامي.

لم أذكر لكم أني منذ أول دقيقة من المقابلة كنت أسجل ورقيًا ما دار بيني وبين

الجاني، فاعذروني ربما أخذني الحماس وأنا أكتب هذه الصفحات.

عدت إلى سيارتي، كنت أحاول أن أستعيد هدوء عقلي لأبدأ تحليل الوضع. لا أخفيكم أن صوت المدعي العام كان مصدر الفوضى والإرباك في ذهني. لم أدخل منزلي، بل بقيت في سيارتي أمامه، وفتحت الملف الذي يحتوي على التدوين. كنت أدرك تمامًا أن ضمن هذه السطور وصف لعقل ذلك المجرم المختل يكشف طرقه وأساليبه، وأنه اعترف بها بشكل ضمني. لكن هذا لا يكفي لإقناع المدعي العام في بيانه بعد أيام قليلة. نحن بحاجة إلى أن نجعله يتحدث بنفسه وبشكل رسمي، وليس من خلال حوار عابر على برنامج افتراضي مع محلل نفسي متخصص في سلوكيات الإجرام.

مرت أكثر من نصف ساعة دون أن أتحرك من مقعدي، لم أجد مخرجًا ولم أصل إلى شيء، فكرت في أنه لا بد أن أغير حالتي وأن أعطي عقلي مساحة ليفكر فيها بصفاء فتخرج أفكاره اللا واعية (خدعة نفسية).

مضى اليوم ليأتي اليوم الثاني والضغط يزداد، فقررت الانتقال إلى المرحلة الثانية من الخدع النفسية. خرجت إلى أحد المقاهي المزدحمة التي أحبها، أغلقت هاتفي، وشربت قهوتي ببطء، ونظرت إلى وجوه الناس حولي. شعرت بأنني في حالة مناسبة لإجراء المقابلة الاسترجاعية. تحدثت إلى المقعد الفارغ أمامي كأني أتحدث إلى الجاني، قائلاً في داخلي: أنت معي الآن، أحس بك، من فضلك لا تذهب، انتظر قليلًا، سأطلب لك قهوة وأعود إليك.

أيها القراء الأعزاء، إنكم تقرؤون الآن صوت عقلي المرتفع، وأدعوكم إلى الانضمام إلي، أعرف أن ذلك يبدو غريبًا، وأظن أن نظرات وجوهكم الآن تشبه نظرة الشاب الذي يعمل على آلة القهوة عندما طلبت منه كوبًا آخر لصديق يجلس معي.

عدت أتصفح الأوراق وأسمعه يهمس في أذني قائلًا:

«لدي قناعة أن خطئي سيكشف، وهم لديهم خوف أن تُكشف أخطاؤهم».

ثم تبادر إلى ذهني حديث الجاني عن نظام والده الصارم، وكيف كان يفرض

الانضباط بالعقاب، وكيف كان يبرر ذلك بأن من يخالف الأوامر المحددة يستحق ما يلقى.

من خلال تصريح الجاني، نستطيع أن نرى كيف كان يبرر لنفسه جرائمه بأنها عقوبة مستحقة لضحاياه الذين انتهكوا القواعد. لم يكن يخاف من العقوبة القانونية، ولكنه لا يزال يخاف فقط من عقوبة والده الذي كان يعامله بالصرامة والعنف. استخدم هذا الأسلوب التربوي مبررًا استغلاله وابتزاز ضحاياه من الطبقات المجتمعية العالية، التي يظن الناس أنهم يتمتعون بكل ما يحتاجون إليه، فما مبرر وقوعهم في الخطأ.

الآن أدركت سبب اختياره هذا النوع من الضحايا، لأنهم يملكون ما يخشون فقدانه. وأدركت أيضًا سبب عدم خوفه ووصفه ذلك بأنه مزيّة، فقد كان يبرر لنفسه أنه يؤدي دور المعاقب، وأن القانون لا يستطيع أن يمسه. فهو كان يخاف فقط من والده الذي كان يعاقبه على أي تقصير أو خطأ. فإذا لم يحضر القداس في الكنيسة، سيعاقب. وإذا لم ينجح في دراسته، سيعاقب أيضًا. لذلك، كان خاليًا من أي ضغط أو قلق.

كان يعرف الخوف جيدًا، وكان يعرف كيف يستخدمه للتحكم في قرارات ضحاياه، فقد كان يستعد لهم بعناية، ويبدأ علاقات معهم متظاهرًا بالصدق والحب. ولكن هذا كان مجرد تمثيل، لأنه لم يكن يشعر بأي مشاعر تجاههم. وهنا ذكر كيف كانت قصة جدتي تؤثر فينا نفسيًا، لأنها كانت ترويها بطريقة تناسب مكان نومنا. فجدتي كانت تعلم أن غرفتنا مليئة بخزانات الملابس، فاستخدمت ذلك لتوهمنا بوجود بوابات مخيفة إلى عالم الساحرة الشريرة. والجاني فعل مثل ما فعلت جدتي، ولذلك استطاع أن يشرح لنا ما حدث. ولكن هنا كانت الشخصيات مختلفة. فهو كان في دور جدتي، وضحاياه كانوا في دورنا.

كان يقترب من ضحاياه بحنكة وصبر وتخطيط، ويعمل على كسر حذرهم وكسب ثقتهم. وخلال هذه العملية، كان يحصل على معلومات كثيرة عنهم، مثل رأيهم في العلاقات العاطفية، وكيف كانوا ينظرون إلى من هم في علاقة معهم. وبالنسبة إلى

الضحايا الذكور، كان يستغل مخاوفهم من تدمير أسرتهم أو فضح علاقتهم التي تشوه سمعتهم في مجتمعهم أو عملهم. وكان يفعل ذلك بالاستعانة بضحاياه الأوائل الإناث بعد أن يجبرهن على البحث عن هذه المعلومات. لذلك، لم يكن لديه نمط ثابت في السيطرة على ضحاياه، بل كان ذلك يتغير حسب خوف كل ضحية، كل ضحية لديها عجوز مرعبة تهدد شيئًا ما تخشاه.

أمسكت هاتفي وكتبت رسالة بريد إلكتروني إلى المدعي العام: «لن تستطيع أن تواجه المجرم في المحكمة بأقوال الشهود وهم موجودون خلفه، فهو لا يخشى قضاءكم ولن ينهار بل سيستمتع بالعرض الأخير الذي يغذيه شعور الخوف والعار الذي يشمه، الحل هو أن نستخدم الخوف ضده بطريقة مختلفة: أخبر شهودك أن يعترفوا بأخطائهم ويطلبوا المغفرة من ذويهم. هذا الأمر يتطلب شجاعة منهم ودعمًا من أحبائهم. لن أخبرك بالضبط كيف ستكون ردة فعل المجرم، ولكن ما أعرفه أنك بهذه الطريقة ستحطّم نفسيته وربما تجعله ينهار، لأنك ستسلب من ضحاياه شعور العار والذنب وستلصقه به. خصوصًا عندما يسمع اعترافاتهم وطلبات المغفرة، وهو ما لم يستطع فعله في طفولته عندما كان يخالف القانون ما يجعله يشعر بالخوف الدائم ويسعى للمثالية. ربما تظن أن ما أقوله جنون أو مغامرة غير مدروسة، لكن ثق بي، هذا هو السبيل لكسر المجرم. هذا ما فهمته من طريقة تفكير المبتزين».

أرسلت رسالتي وظهرت على شاشة جهازي كلمة «تم الإرسال». شعرت بالقلق من أن المدعي العام لن يأخذ بنصيحتي بعد ردة فعله الأخيرة، وسيعدني مضيعة لوقته. مرت الأيام ولم أسمع منه شيئًا. تجاوزنا موعد المحكمة بيومين ولم يصلني منه رد. حينئذٍ تأكدت أنه تجاهل رسالتي الأخيرة.

بعد خمسة أيام وصلتني رسالة من الاتحاد الدولي للقانون الطبي معنونة بخطاب رسمي إلى الاتحاد ومشار إلي فيها تحت وصف (المساعدة القيمة). كانت رسالة رسمية، لكنني شعرت بفضول الباحث الذي يرغب في التأكد من نتائج بحثه. فاتصلت بالمدعي العام على هاتفه، وبعد المحاولة الثانية رد علي قائلاً:

- أهلًا

- أهلًا بك. أعتذر إذا كان اتصالي ليس في الوقت المناسب.

- لا، الوقت مناسب.

- لدي سؤال واحد فقط من أجل بحثي عن المبتزين. هل تسمح لي؟

- تفضل.

- ماذا حصل؟ هل أخذت بنصيحتي؟

- ألم تصل إليك رسالة الشكر؟

- نعم وصلت! وأشكرك على ذلك، لكنني لست بحاجة إلى الشكر.

سمعتِ صوت ضحك مرتفع من الطرف الآخر.

- هل تعلم؟ منذ أول يوم تواصلت معك فيه، كنت معجبًا بخبرتك في مجالك واستحقاقك لشهرتك. إن كان جوابي يفيدك، فنعم فعلت ما نصحتني به. لكن من بين الضحايا لم يوافقن على الشهادة إلا ثلاث منهن. وكنّ مستعدات للاعتذار العلني وتحمُّل المسؤولية.

- ماذا كانت ردة فعله؟

- انهار وصرخ: «لا يستطيع أهلهن أن يغفروا لهن! إنهن تساهلن معي وخالفن القواعد وخنّ الثقة! إنهن سقطن في فخي.

- شكرًا لك، لأنك وثقت بي.

- أشكرك أنت. وسأعود إليك مجددًا إذا ما صادفت مجنونًا لا يمكن فهمه، لأنك خبير في هذا النوع من المجرمين.

انتهت المكالمة، ولكنها كانت بمثابة بداية لي لوضع تصنيف خاص للمبتزين الذين يرتكبون أنواعًا مختلفة من الجرائم، ولكنهم في النهاية يتشابهون في طريقة تفكيرهم وتخطيطهم لجرائمهم. هؤلاء المبتزون:

- أذكياء عاطفيًا: يستطيعون قراءة مشاعر ضحاياهم والتعرف على احتياجاتهم العاطفية، ويستخدمون ذلك لإقامة علاقة مبنية على الثقة والانجذاب.

- صبورون: ينتظرون الوقت المناسب للكشف عن نياتهم الحقيقية، ولا يستعجلون في تحقيق مطالبهم. بل يزيدون من حدة الخوف والضغط على ضحاياهم تدريجيًا.

- قادرون على تحويل الاحتياج إلى مصيدة: بعد أن يكتشفوا ما يحتاج إليه ضحاياهم عاطفيًا، يبدؤون بتقديمه لهم بشكل مشروط، ويربطونه بالخوف من فقدانه أو التعرض للخطر. وهكذا يسجنون ضحاياهم في دائرة من الخوف والامتنان والولاء. ويراهنون على أن ضحاياهم لن يستطيعوا طلب المساعدة من أحد، أو أنهم سيرفضونها إذا قُدّمت لهم. يعلمون أنه سيأتي وقت تطلب فيه الضحية المساعدة من شخص ما ولكنهم يطيلون أمد هذه العلاقة بتعميق الخوف.

الخوف هو المحرك الأساسي لجرائم المبتزين، فهم يستغلون شعورًا إنسانيًا طبيعيًا، يؤثر في قدرة الإنسان على التفكير بعقلانية واتخاذ القرارات السليمة. وعندما يزداد الخوف، يصبح سلاحًا ذو حدين، يسجن عقول ضحايا المبتزين، ويجبرهم على التصرف تحت التهديد، فيظنون أنه الخيار الصحيح.

ولذلك فإن المبتز كالحيوان المفترس، يشم رائحة الخوف من فرائسه.

(2)

الشعور.. السلوك.. العادة

«العقل الإجرامي.. على الرغم من شرهه واعتلاله، فإنه يحمل هندسة العقل الطبيعي نفسها. هناك نمط واضح».

منذ زمن بعيد، يدور في رأسي سؤال بلا هوادة.. ما الأمر الذي يجعلني -بصفتي محللًا- لا أزال شغوفًا بدراسة كل جريمة عنيفة كانت أم متسلسلة كأنه حدث جديد؟ حتى لو تشابهت الجرائم في اسمها أو نوع الضحايا!

في آب من عام 2019، سافرت إلى طوكيو في اليابان في رحلة عمل كانت بمثابة محطة مهمة في مسيرتي المهنية والشخصية. كنت مدعوًا للمشاركة في المؤتمر السابع والعشرين للاتحاد الدولي للقانون الطبي، أول محلل سلوكيات إجرامية ينضم إلى هذه المنظمة. وكان علي أن أقدم محاضرات وورقة عمل عن هذا المجال الجديد والمثير الذي لا يعرفه كثيرون في هذا البيئة القانونية والطبية. لا أريد أن أطيل عليكم الحديث عن التفاصيل، ولكن أود أن أشارككم لحظة فارقة حدثت في حفل التعارف بين أعضاء الاتحاد. فبعد أن تعرّف الـ 141 عضوًا على هويتي ومجال عملي، شعرت بأنني محط أنظارهم واستفساراتهم. وبدأت تنهال علي الأسئلة المألوفة: «ما مجالك؟» «ما طبيعة عملك؟» «هل تدخل إلى مسرح الجريمة؟» وغيرها من الأسئلة التي اعتدت الإجابة عنها بخبرة وثقة. ولكن كان هناك سؤال واحد غير متوقع، سأله المحامي الإيرلندي كلارك بيل، حين قال: «أنا معجب بإجاباتك وأود أن أسألك شيئًا، عمّ تبحث؟ أقصد، عمّ تبحث في عملك مرشدًا رئيسًا في رحلتك التحليلية؟»

في حقيقة الأمر -أعزائي القراء- كان السؤال مفاجئًا ومحيرًا، أو ربما كان فخًا مدبرًا من القانوني الإيرلندي. لم يكن لدي إجابة جاهزة في ذلك الوقت، فسألته أن يحضر محاضرتي في اليوم التالي في كلية العدالة الجنائية، التي قررت تغيير

موضوعها على الفور إلى موضوع السيد كلارك، لأشرح فيها وجهة نظري الخاصة عن هذا المجال: التحليل الإجرامي. بعد انتهاء حفلة التعارف، عدت إلى غرفتي وأنا مشغول بالسؤال، وهذا جزء من سلبيات تشخيصي باضطراب القلق العام. فتحت عرض محاضرتي وغيرت اسمها، آملاً أن أجد إجابة ترضيني وتقنعه وتقنعكم أيضًا وأنتم تقرؤون هذه الكلمات.

(السلوك الإجرامي خدعة)

اخترت هذا العنوان لمحاضرتي وانطلقت في رحلة لإثبات النقيض. نعم، كان عنوانًا مغريًا، ولكني كنت بحاجة إلى إثبات النقيض. فتحت جهازي المحمول وبحثت في ملفات التحليل التي كنت قد حفظتها. اخترت تسع قضايا من دول متنوعة في ثقافتها واقتصادها، ولم يكن يجمعها سوى كونها قضايا لمجرمين متسلسلين.

كانت الساعة 11:24 مساءً بتوقيت طوكيو عندما بدأت التحليل. سجلت ملاحظاتي من جديد كأني أفعل ذلك لأول مرة. بعد أن انتهيت من التسجيل، أخذت الأوراق ووزعتها على الأرض. كان المشهد أمامي فوضويًا، فقررت ترتيبه بطريقة خاصة، وأن أبحث عن نمط متشابه فيها لعلي أعرف سبب شعوري أن ما أفعله لا بد أن يكون ذا معنى، ولا أخفيكم كنت أثق بصوت عقلي الباطن الذي كان يردد: «لن أخذلك كثيرًا، لذا.. اتبعني»، جمعت المعلومات حسب درجة التنظيم والعنف في الجرائم من الأعلى إلى الأدنى. أصبح المشهد أمامي أكثر وضوحًا، فأدركت أن هناك مستويات من الغضب والانحراف والسلوك الإجرامي أيضًا. عدت إلى قراءة الملاحظات التي سجلتها، فأحسست بالإرهاق من التفكير. قلت لنفسي إن النوم ساعتين قد يفيد في التركيز. نظرت إلى الساعة التي تقدمت بسرعة كأن أحدًا سرق وقتها، فكانت الساعة 01:48 صباحًا. اتصلت بمكتب الاستقبال وطلبت خدمة الإيقاظ بعد ساعتين. وبسبب إدماني على القهوة، كان جسدي مُنهَكًا ولكن عقلي مستيقظ. حاولت أن أغفو بطريقة كنت أستخدمها في طفولتي، علمتني إياها والدتي التي كانت تقول لي: «اسمع، تمدد ثم أغمض عينيك، وبعد ذلك هز نفسك

بهدوء كأنك على سرير معلق، وردد يا نوم يا نوم تعال يا نوم 10 مرات». كانت هذا التقنية مفيدة في طفولتي، ولكني لست متأكدًا من فائدتها الآن. وفي أثناء تذكر هذه الطريقة، بدأت أطبقها كأنني طفل مرة أخرى، مع أني أعلم أنها خدعة ذهنية. وهنا، كأن شيئًا ما أيقظني من سباتي، خطرت في ذهني قضية مجرم في الهند كان يعتدي على النساء المسنات ويجردهن من ملابسهن ويترك الجثث في الطرق العامة. نهضت مُسرعًا إلى طاولة الغرفة وفتحت جهاز الحاسب لأستعرض هذه القضية. قرأت التحليل مرارًا وتكرارًا وشاهدت صور مسارح الجريمة ووضعيات الجثث. وفي ذلك الحين، سألت نفسي سؤالًا بصوت عالٍ:

ماذا لو كان لدى المجرم خدعته الذهنية؟

وأقصد بذلك خدعة تشبه خدعة والدتي التي كانت تساعدني على النوم في طفولتي. تحولت هذه الخدعة بعد نجاحها أول مرة إلى عادة صنعت سلوكًا يجعلني أشعر بمشاعر محددة. ماذا لو كان المجرم في أول جريمة يظن أن هذا السلوك تجاه هذا النوع من الضحايا سيخفف من غضبه وحقده؟ كان في البداية يرمي الجثث في الطرق الجانبية بين المزارع التي لا يزورها عدد كبير من الناس، لكن هذا لم يكفِ، فأصبح يحتاج إلى إفراز أكبر لمادة الدوبامين التي تعكس النشوة. لذلك تطور سلوكه في هذه القضية وبدأ رمي الجثث في الأماكن العامة المزدحمة ليزيد من فضح الضحية وإهانتها. وهذا ما يجعله يفرغ غضبه من زوجة والده المستبدة، التي يرى أنها سببت وفاة والدته التي تخلى عنها أبوه من أجل امرأة أخرى. لكن وفاة زوجة الأب هي الأخرى فجرت غضبه فأصبح يبحث عن بديلات لها.

في هذه اللحظة، أدركت شيئًا مهمًا، وتأكدت منه بعد أن رجعت إلى القضايا التي اخترتها سابقًا. لاحظت أن المجرمين يسعون لتكرار السلوك الذي يمنحهم شعورًا بالانتشاء، وهذا هو الدافع وراء جرائمهم. ودوري أنا كوني محللًا، عندما أرى مسرح الجريمة وأعرف نوع الضحايا وطريقة وأداة الجريمة وكل التقارير التي تساعدني على إعادة تمثيل الجريمة، هو البحث عن السلوك والعادة التي توصل المجرم إلى الثابت في المعادلة الإجرامية ألا وهو الشعور. فكل مجرم لديه سلوك مبني على

عادة تجعله يختار بشكل مختلف عن غيره من المجرمين نوع جريمته ونوع ضحيته وطريقة التنفيذ، بحيث يصل إلى نفس المشاعر. إذًا، ما أبحث عنه من خلال عناصر التحليل هو المتغيرات التي تحدد سلوك المجرم وعادته.

رن **الهاتف**... كان مكتب الاستقبال يوقظني، وكانت الساعة 03:47 صباحًا. لم أشعر بمرور الوقت، ولم أقل لهم إنني لم أستطع النوم. لكني شكرتهم على اهتمامهم، فهم لا يدرون أن عقلي مشغول إلى هذه الدرجة. أبقيت على عنوان محاضرتي كما هو، فقد كان عنوانًا محايدًا ومثيرًا في نفس الوقت. وبعد أن استعرضت تسع قضايا، اكتشفت شيئًا جديدًا عن نفسي. فلأول مرة منذ ثمانية أعوام، عرفت أنني أستهدف عناصر محددة في كل قضية عنيفة ومتسلسلة. وهذه العناصر هي: **الشعور... السلوك... العادة.**

(3)

الأمومة الإجرامية

«لدي الحق في أن أكون أمًا حتى إن كان الثمن جريمة أرتكبها»

نادرًا ما نسمع خبرًا مثل: خُطف رضيع من مستشفى أو حديقة أو مركز تسوق. هذا النوع من الجرائم ليس شائعًا في عالم الجريمة. وكوني محلل جرائم، أستطيع أن أقول إن هذه الجرائم نادرة مقارنة بجرائم أخرى مثل القتل والسرقة والاعتداء على البالغين أو المراهقين. والسبب في ندرتها ليس الإحصاءات أو مستوى الأمان في الدول، بل نوع الضحية في هذه الجرائم. فإذا لم يكن الطفل رضيعًا لأسرة ثرية أو نافذة، فلا يوجد هناك مصلحة مادية لطلب فدية من أجله.

هنا نتعامل مع خاطفة وليس خاطف، إذ إن سبب قلة هذا النوع من الجرائم هو المجهود المطلوب لتأمين حياة هذا النوع من الضحايا، وهذا المجهود لن يقدمه ذكر دون هدف مادي. فنحن نتكلم عن ضحية تحتاج إلى رعاية بدنية ومادية وعاطفية، والخاطفة تقدم كل ذلك من أجل الحصول على فائدة معنوية وليست مادية. ولكن عليّ أن أشير إلى أن هناك ثلاثة أنواع وجدتها ضمن هذا النمط رغم ندرته، وهذه الأنواع كل منها يتميز بدرجة من العنف تبدأ بمعدوم العنف، وفيه تكون الخاطفة مسؤولة تمامًا عن رعاية الرضيع المخطوف حتى تكتشف جريمتها ويقبض عليها. ثم يأتي النوع الثاني، وفيه تكون الخاطفة قد فقدت رضيعًا وتبحث عن بديل له، ثم تتخلص منه بطريقة ما. وسأتحدث عن هذا النوع بالتفصيل فيما بعد. وأخيرًا يأتي النوع الثالث، وهو الأشد عنفًا، إذ تقتل الخاطفة والدة الرضيع وتسرقه منها. وهذا هو النوع الذي بدأ يزداد في هذا السلوك الإجرامي منذ عام 2012 وثورة مواقع التواصل الاجتماعي.

في صباح يوم 14 يونيو 2022، اتصل بي صديق يعمل في شرطة كلوكت الهندية، وأخبرني عن قضية اختطاف رضيع من قسم الولادة في أحد المستشفيات.

كان الصديق قد حضر معي محاضرة عن جرائم اختطاف الفدية والافتراس التي ألقيتها في إطار المؤتمر الدولي للقانون الطبي واستفاد منها في تحليل هذه القضية. وأعطاني تفاصيل الجريمة، مثل: عدم وجود شهود عيان، واحتمالية تواطؤ بعض الموظفين، ورصد كاميرات المراقبة لسيدة شابة تبدو في أواخر العشرين أو منتصف الثلاثين ترتدي زي ممرضة، وقد اختفت بعد خروجها من المستشفى بين الزوار والمرضى، وأن الكاميرات الموجودة في بعض المحلات التجارية حول المستشفى لم ترصد شيئًا واضحًا يساعد في هذه الجريمة. وطلب مني أن أخبره أكثر عن أنواع الخاطفات التي ذكرتها بإيجاز في محاضرتي، والتي تختلف حسب درجة العنف والدافع والسلوك. فطلبت منه أن يرسل لي كل التفاصيل والصور المتعلقة بالجريمة، ومعلومات عن الإجراءات الأمنية في المستشفى وكيفية التعامل مع المواليد الجدد. فوافق على ذلك دون أن يتساءل عن أسبابي، وقال إنه سيرسل لي كل شيء عبر البريد الإلكتروني خلال 45 دقيقة.

وفعلًا وصلت التفاصيل وبدأت أسترجع من هن خاطفات الرضع؟

لنتعرف معًا على خاطفات الرضع.. تقسم خاطفات الرضع إلى ثلاثة أنواع حسب درجة العنف والدافع والسلوك. ولنبدأ بالنوع الأول، وهو الأقل عنفًا والأكثر احتفاظًا بالضحية على قيد الحياة:

- الراعية

تتميز الخاطفة من هذا النوع بأن لديها رغبة في الأمومة، ولكنها غير قادرة على الإنجاب، سواء بسبب التقدم في العمر -وهذا يعني أنها أنجبت من قبل- أو بسبب العقم منذ الشباب. وهذا النوع يشعر بالنقص وعدم الاكتفاء النفسي والخوف من فقدان شريكها أو من التهميش في مجتمعات تحتقر المرأة العاقر وتعاملها كأرض بور. وحسب دراساتي لهذا النوع من الجرائم، وجدت أن هؤلاء الخاطفات لديهن تاريخ من الانطواء والعزلة الاجتماعية وعدم القدرة على تكوين العلاقات الاجتماعية بسرعة أو بدرجة تضمن استمرارها مدة طويلة، وأنهن تعرضن للنبذ من عائلاتهن أو أصدقائهن، ولديهن ضعف في الثقة بالنفس وعدم رضا عن مظهرهن الخارجي. لذلك

يحاولن أن يحافظن على صورتهن كأمهات محبوبات في نظر شريكهن الذكوري، خصوصًا إن كانت أنجبت له من قبل وتوقفت عن ذلك بسبب ظروف صحية أو تقدم في العمر، فتبرر لنفسها أنها ليست عاقرًا، بل هي قادرة على رعاية رضيع وتربيته، وهذا سيجعل شريكها يتخلى عن فكرة الطلاق أو الزواج من امرأة أخرى.

أعزائي القراء، هذا ما تتخيله هذه الخاطفة في عقلها المريض، وهو نتيجة لتجارب الرفض والنبذ التي عاشتها في ماضيها، وعدم قدرتها على التكيف مع مجتمع لا يقبلها صديقة أو زوجة. وتشعر بأن فقدانها للإنجاب أو عدم امتلاكها له من البداية سيحرمها من آخر فرصة للاعتراف بها فردًا في المجتمع.

تتحالف الخاطفة من هذا النوع مع شريك ذكر خاضع، وليس بالضرورة أن يكون زوجها، بل قد يكون أخًا أو شخصًا أصغر منها سنًا، وتستغل قدرتها على التأثير فيه عاطفيًا. ويشارك هذا الشريك في الجريمة لأنه يؤمن بأن الخاطفة تستحق أن تكون أمًا، أو لأنه يرى فيها جزءًا من هويته. وهذا الشريك عادة ما يكون لديه مشكلات في العلاقات الاجتماعية، وقد نجته الخاطفة من وضع صعب، مثل: انتهاء تأشيرة الإقامة أو التشرد أو الفقر، ومنحته مكانة اجتماعية واحترامًا وحقًا في الحياة. ربما تتساءلون كيف يبرر هذا الشريك سلوكه، لكن العلاقة الإجرامية مثل السلوك الإجرامي لا تخضع للمنطق، بل للمصلحة. وهذا الشريك دوره يكون في تأمين خروج الخاطفة من المستشفى، وتوفير وسيلة نقل ومكان للاحتفاظ بالضحية.

تبحث الخاطفة عن تعويض عن خسارة زوجها أو أحد أطفالها، أو عن انهيار زواجها، وربما تكون غير متزوجة في الأصل، وتريد أن تثبت للشريك المنفصل عنها أنها قادرة على الأمومة، وأن تتخلص من عقدة الذنب التي تحملها بسبب تجارب النبذ في ماضيها. فترى في هذا النوع من الجرائم -اختطاف الرضع- سلوكًا دفاعيًا يمنحها شعورًا بالانتماء إلى المجتمع، وكونها راعية للطفل الذي سيبقى معها. وبعد انفصالها، تحتاج إلى شريك خاضع ذكر يبرر وجود هذا الطفل، خصوصًا في الدول والمجتمعات التي تحظر الإنجاب خارج إطار الزواج الشرعي. وقد تختلق سيناريو جديدًا في مكان آخر (تغير مسكنها أو مدينتها) لتبدأ حياتها الجديدة مع شريكها

والضحية التي اختطفتها.

يتميز هذا النوع من الخاطفات بسمة مهمة، وهي أن الطفل الضحية لا يتعرض للخطر بعد أن تخرج به من المستشفى وتأخذه إلى مكان تخفيه فيه. فالضحية يمثل لها مصدرًا لمشاعر التعويض التي تسعى لها وتنتشي بها، والتي تؤثر بدورها في علاقتها بشريكها الخاضع. لذلك تحافظ على حياة الطفل وصحته، لأنها تربط بينه وبين استمرار هذه العلاقة وتغذية هذه المشاعر المريضة والمنحرفة.

- اليائسة

يعد هذا النوع من الخاطفات الأقل بين الأنواع الثلاثة، تختار الخاطفة رضيعًا يشبه الرضيع الذي فقدته بسبب خطأ أو إهمال من جانبها أو بسبب إصابتها بالاكتئاب بعد الولادة. وهذه الخاطفة تقتل الرضيع المخطوف -على عكس النوع السابق- لتبرر لنفسها أن موت الرضع في هذا العمر شيء عادي، وأن ما حدث لرضيعها لم يكن استثناء. وهذا النوع من الجرائم يحدث عادة بعد أن تتحمل الخاطفة كامل المسؤولية عن وفاة رضيعها وقد يؤدي ذلك إلى انفصالها عن زوجها. وهذا يكون محفزًا لهذا السلوك المتطرف كرد فعل على صدمة فقدان الرضيع واللوم والنبذ. ولذلك يجب أن نبحث عن السيدات التي بُلِّغ عن وفاة رضيع لهن من نفس جنس وعمر الرضيع المخطوف، وأن يكون هناك ملاحظة على تشخيص الوفاة بالإهمال أو الخطأ. وهذا يسهّل تحديد هؤلاء الخاطفات فهن النوع الأسهل في التتبع، تعمل الخاطفة بمفردها لأنها تظن أن ما حدث لرضيعها ليس خطأ منها، وتحاول أن تثبت ذلك. ولسوء الحظ، هذا النوع من الخاطفات يتخلص من الرضيع ما إن يضعه في ظروف مشابهة لظروف رضيعها المتوفى. لذا يجب التحرك بسرعة مع هذا النوع من الخاطفات لإنقاذ حياة الرضيع.

- المفترسة

هذا النوع هو نوع حديث ومتطور، وهو يعكس تطور السلوك الإجرامي مع تطور التقنية. فمع ثورة التقنية، تحسنت الأنظمة الأمنية في المستشفيات والمراكز الطبية، وأصبح هناك إجراءات صارمة تحول دون اختطاف الرضع من هذه الأماكن. لكن

هذا لم يؤدِ إلى انقراض هذا النوع من الخاطفات، بل دفعهن إلى استخدام مواقع التواصل الاجتماعي للبحث عن ضحايا حوامل أو مرضعات. تسمي الخاطفات هؤلاء الضحايا بـ(الأوعية)؛ ما يدل على تجريدهن من حقهن في الأمومة.

تبحث الخاطفة عن ضحاياها عبر الإنترنت. فتدخل على محركات البحث وتبحث عن جمل مثل: «أنا حامل!» أو «أخيرًا سأصبح أمًا!» أو «أنا حامل بصبي أم بفتاة؟». وبعد أن تجد الضحية المناسبة، تقيم علاقة معها، وعادة يكون الغطاء بالنسبة إليها أنها هي أيضًا -الجانية- حامل. وهذه الخاطفة تكون صبورة جدًا، فقد تنتظر مدة طويلة، وتخدع خلالها ضحيتها وعائلتها وأصدقاءها بحملها الزائف. وقد تزيد وزنها، وتحضر دروسًا للأمهات الجدد، وكل ذلك جزء من خطتها للاستيلاء على الرضيع، وهذه نهاية لم تكن موجودة في النوعين التقليديين: الراعية واليائسة.

يعكس هذا أيضًا مهارة وإتقانًا في الكذب، وهذا يدل على أن لديها نسبة ذكاء أعلى من المتوسط، أو أنها تعاني الكذبَ المرضي، وهو سلوك متكرر عندها وقد يكون معروفًا في تاريخها. تخطط الخاطفة بدقة لمراحل الحمل التي تزيفها، والتي لن تمر بها حقيقة، لأنها ليست حاملًا. وتقرر أن تقتل والدة الرضيع الذي ستخطفه، وتستخدم في ذلك عاملين: الأول، معرفتها بمدة حمل ضحيتها وموعد ولادتها، لتتناسب مع ظهور الرضيع الذي ستخطفه. والثاني، معرفتها الشخصية بضحيتها، وثقة الضحية بها، وجهلها بنية المجرمة.

عكس النوعين السابقين، تحاول الخاطفة أن تظهر للناس أنها أم حقيقية، ولذلك تبذل جهدًا في إقناع من حولها بحملها الزائف. وبعد أن تقتل ضحيتها وتستولي على الرضيع، تتوجه إلى المستشفى كنوع من الإجراء المضاد، وتدعي أنها ولدت في الطريق، أو تتصل بالإسعاف، وتزيف آلام المخاض. لكن هذا الادعاء سينكشف بسرعة، عندما يكشف الأطباء عليها ولا يجدون علامات تدل على الولادة الحديثة.

إذا أردنا أن نثبت على هذه الخاطفة هذا السلوك، سنجد في تاريخ بحثها الأخير في مواقع التواصل أو نشاطها على الإنترنت دلائل على اهتمامها بالولادة المنزلية أو تجارب الولادة خارج المستشفى. وسنجد أيضًا أن الضحية لا تستطيع الإنجاب، وهذا

ما يميز هذه الخاطفة عن باقي الأنواع. فهي لا تستطيع الإنجاب، ولذلك تلجأ إلى أقصى درجات التطرف في سلوكها.

أرسلت هذه التفاصيل إلى صديقي، وطلبت منه أن يبقيني على اطلاع بمجرى التحقيق رغبة مني في مساعدته واختبار هذا التحليل للسلوكيات.

....

في ظهيرة يوم 17 يونيو (بعد ثلاثة أيام)، تلقيت بريدًا إلكترونيًا من شاولي يُخبرني فيه بأنهم تمكنوا من العثور على الطفل والمختطفة، وأن حالة الرضيع ليست مستقرة تمامًا، لكنهم أنقذوه في اللحظة المناسبة. وطلب مني أن أتصل به في أي وقت يُناسبني ليُطلعني على كيفية استخدام ملفاتي المتعلقة بأنواع الخاطفات.

فمن شدة حماسي، اتصلت به في نفس اللحظة التي أنهيت فيها قراءة آخر سطر من الرسالة.

«أهلًا»، هذا ما قاله عندما رد على المكالمة، ولكن حماسي جعلني أتجاوز الترحيب فسألته عن التفاصيل المتعلقة بمدى فائدة التصنيف الذي وضعته للأنواع الثلاثة.

Telegram:@mbooks90

فأخبرني بأنه نظرًا إلى صعوبة مراقبة الكاميرات وقلة عدد العاملين معه، قرر أن يركز على الأكثر أولوية، وهو نوع المختطفات اللاتي يدّعين أنهن وضعن مولودًا مفاجئًا، وأبلغ المستشفيات ودور الرعاية بهذه الإمكانية، وطلب منهم التواصل مع أقرب مركز شرطة في حال ظهور أي حالة تحمل هذه المواصفات.

وقرر شاولي أن يسارع في البحث عن سجل الوفيات الخاص بالرضع في المدينة، الذي تسجله مصلحة الطب الشرعي والطوارئ أيضًا، وأن يقارنه مع سجلات المحكمة المدنية وحالات الانفصال. وهكذا تمكن هو والشرطة من تحديد ثلاثة أسماء لسيدات تتوافق مع التصنيف الذي وضعته. وبعد مداهمة المواقع الثلاثة، عثروا على الطفل لدى إحدى المشتبه فيهن، وألقوا القبض عليها. وثمن لي دقة تحليلي، وقبل أن ينهي حديثه، تنهّد بحزن قائلًا: «لماذا تخطف؟ لماذا لا تتبنى طفلًا؟ هنا في الهند، كثير هم الأطفال المشرّدون والرضّع المُهمَلون بسبب الفقر أو عدم الرغبة في تحمّل المسؤولية

وبعضهم قد رمي في الحاويات. إذا كانت تشتاق إلى شعور الأمومة، لماذا تلجأ إلى الإجرام؟»

هذا السؤال فتح لي بابًا جديدًا، وأدركت أن ملف الخاطفات لم يُغلق بعد، وأن هناك سؤالًا لم أجب عنه: لماذا الاختطاف وكل هذه المخاطرة التي لا تنجح إلا نادرًا؟

بعد انتهاء المكالمة، ظلّ هذا السؤال يحيرني ويشغل تفكيري عدة أيام. وأنا أتساءل لماذا لم أفكر في هذا السؤال قبل شاولي. ربما كان السبب أنني رجل، ولم أشعر بالأبوة بعد. وفي يوم من الأيام، كنت أتحدث مع والدتي، فسمعتها تُوضّح لأخي الأوسط معنى مثل شعبي مشهور في العالم العربي بصورة أو بأخرى: «الأم هي التي تربّي لا التي تلد!» ومع أن حديث والدتي كان في سياق مختلف تمامًا فإنه ألهمني بفكرة مهمة. هل من الممكن أن تكون هذه الخاطفات مقتنعات أن التربية تُساوي الولادة؟

قفزت من مقعدي راكضًا إلى جهازي، وبدأت أبحث عن جرائم اختطاف رضع عشوائية على الإنترنت في دول وعصور مختلفة. لم أجد جريمة واحدة خالية من المخاطرة والتحدي، سواء كان الاختطاف من مكان شديد الأمن أم كثير الشهود، حتى في النوع الثالث المفترسة فإنها تتحدى الأطباء أنهم لن يكتشفوا أنها لم تتعرض للمخاض. هل تظن هؤلاء المختطفات أنهن بذلك يستحققن الأمومة؟ هل تظن الخاطفة المفترسة أن بارتكابها جريمة قتل واستيلائها على الرضيع فإنه يصبح من حقها؟ هل تعتقد الخاطفة الراعية أن مخاطرة اقتحام المستشفى وسرقة الطفل وسط الإجراءات الأمنية المشددة تُعادل صعوبات وخطورة الولادة وهو ما يعطيها الاستحقاق؟

هل ترى اليائسة أن عملية إخراج الرضيع من الأماكن المزدحمة أو الإجراءات الأمنية المعقدة يمنحها استحقاقًا ومبررًا لقتل الرضيع من أجل أن تبعد عقدة الذنب عنها؟

لقد لاحظت أن جميع الجرائم كانت محفوفة بالمخاطر والصعوبات لكل الأنواع الثلاثة كأنها تعوّض عن خطورة وصعوبة الولادة، وهو الحاجز الذي تكسره الجانية

بالخطف في هذه الظروف: «لم ألده بمخاض، لكن أخذته بخطورة قد تودي بحياتي»، هذا ما يبدو أنه تبريرهن عن الفعل الإجرامي في خيالهن المريض. وأيضًا لم أجد أي تناقض في أي ملف من ملفات الأنواع الثلاثة، بل كان عنصر الاستحقاقية المبالغ فيها هو العنصر المفقود بالنسبة إليّ في خيالات الخاطفات في الأنواع الثلاثة.

والآن أترك ملفاتي بين أيديكم لبقية الزمن. أرجو أن تقارنوها مع أي جريمة من هذه الأنواع عبر التاريخ.

(4)
القناع الإجرامي

«القناع شخصية نرغب فيها لنخفي ما نحن عليه»

إن الجرائم التي يرتكبها المجرمون وهم يرتدون أقنعة تثير فضولنا، فهم يرتدون القناع حتى إن كانوا وحدهم في مسرح الجريمة، ويخفون وجوههم بشيء يمكن أن يحمل رسائل متنوعة، ولكن هل فكرنا يومًا في معنى القناع؟ وما الغرض من استعماله؟ وما الذي يدل عليه؟

عُرِفت الأقنعة في الثقافات الدينية والفنية والأدبية منذ بداية الوعي البشري. فالقناع قد يكون وسيلة لإخفاء الهوية، كما في تلك الحفلات التي لا تتلاءم مع مكانة المشاركين الاجتماعية. أو قد يكون سلاحًا لإرهاب الأعداء، كما في المعارك التي شهدتها أوروبا في العصور الوسطى. أو قد يكون جزءًا من طقس ديني أو روحي إذ يرمز عندها إلى رتبة معينة. لكن هذه ليست جوهر موضوعنا. هل نستطيع أن نربط هذه الأسباب بالسلوك الإجرامي؟ هل من المعقول أن نصف سارقًا بأنه يعتبر القناع جزءًا من طقس جريمته؟ قد يبدو هذا غريبًا إلى حدٍّ ما، أليس كذلك؟

لكن دعوني أخبركم عن قضية عجيبة عرضت علي في عام 2021 في دولة عربية. اتصل بي صديقي الدكتور عنان الذي يعمل طبيبًا نفسيًا في سجن تلك الدولة، وأخبرني عن أربعة شبان من عائلات ثرية ومحترمة، خريجي كلية الطب. والغريب أن قضيتهم تتعلق بسرقات استهدفت محلات تجارية صغيرة جدًا، لا تحتوي على مبالغ كبيرة من المال. وفي الحقيقة، هذا الأمر شد انتباهي، وزاد اهتمامي حين أخبرني صديقي بأن المجرمين لم يسرقوا شيئًا ثمينًا ولم يلمسوا صندوق الأموال في المحلات الخمسة، بل فقط اقتحموا المحلات وضربوا العاملين فيها، وأخذوا بعض المشروبات والحلوى والشيبس. وهذا حقًا أمر غير عادي. وأصبح الأمر أغرب حين رأيت الملف الكامل للقضية -بعد أخذ إذن من الاتحاد الدولي للقانون الطبي-،

وكان من ضمن محتويات الملف تقرير مفصل عن الجرائم والأدوات التي ضُبطت مع المجرمين، وهي الآتي:

- 4 أقنعة لشخصيات كرتونية.
- كاميرا فيديو من نوع سوني.
- خمس أسطوانات ممغنطة (CD) موثق عليها تفاصيل الجرائم الخمسة.
- سيارة نوع بيجو مسروقة.

لم يكن الأمر الأغرب واضحًا منذ البداية، بل بعد أن سألت الدكتور عنان بفضول عن النطاق الجغرافي للهجمات الخمس، وعن أماكن إقامة أو دراسة المجرمين الأربعة. فلما أجابني الدكتور عنان، وجدت أن تلك الأدوات التي ضُبطت معهم غير منطقية باستثناء السيارة المسروقة. فالأربعة كانوا يعيشون في منطقة راقية تبعد عن مواقع الجرائم نحو 55 كيلومترًا، وهذا فعل غير منطقي. فلو افترضنا أنهم اتخذوا كل الاحتياطات من ارتداء أقنعة واختيار مواقع تبعد الشبهات عنهم، فإن هذا يحمل في ذاته مخاطرة كبيرة، لأنهم لا يعرفون تفاصيل تلك المنطقة جيدًا، وبالتالي يمكن أن يقعوا في أخطاء فادحة.

لم يكن الهدف يستحق كل هذه المجازفة والتعب من وجهة نظري، وذلك بعد أن حاولت أن أنظر من منظور عقول هؤلاء الشبان المجرمين. فهم قطعوا مسافة 55 كيلومترًا في سيارة مسروقة، ليهاجموا محلات تجارية بسيطة لا تحوي شيئًا ثمينًا. هذا أمر غير منطقي على الإطلاق! على الأقل كان يجب أن يكون لديهم دافع مادي، ولكن صناديق المال في تلك المحلات تنفي هذا الافتراض. فما الذي كان يشجعهم على فعل ذلك؟

سألت الدكتور عنان عن وجهة نظره، فأجابني بطريقة علمية بحتة قائلًا إن الأمر مجرد «تهور شبان» ومع احترامي لوجهة نظره ولشخصه الكريم فإني أرى أن الأمر أعمق من ذلك. لماذا يغامر هؤلاء الشبان بسمعتهم وما وصلوا إليه من نجاح ليصبحوا مجرمين، مع أنهم ليس لديهم أي عوامل تدفع إلى الإجرام في حياتهم أو

علاقتهم مع عائلاتهم كالجفاف العاطفي أو العوز المادي أو التقدير النفسي، بل على العكس من ذلك، فقد كانوا -في الواقع- من أسر متماسكة ومحل تقدير في محيطهم ومثار إعجاب لأقرانهم، لذلك كان من الغريب ما حدث في هذه القضية، إن الإجابة في مكان ما في إحدى زوايا تلك الجرائم، هناك تفسير سلوكي يجعل ما حدث - تحليليًا- أمرًا منطقيًا.

سافرت إلى الدكتور عنان، ومن يعرف محمد الشيباني يعرف أني أبحث عن الغامض في السلوك الإجرامي، حتى إن اضطررت إلى السفر ست ساعات في رحلة طويلة، باحثًا عن جواب واحد يفسر ما حدث. وعندما وصلت، كان التوقيت المحلي للدولة العربية يشير إلى الساعة 11:22 من صباح يوم الثلاثاء، وهذا يعني أن الدكتور عنان في العمل. فاتصلت به مبلغًا إياه بأنني قد وصلت، وطالبًا منه أن يحضر لي الأسطوانات التي تضم تسجيلات الجرائم الخمس. فرفض ذلك بشدة، معتذرًا بأنه ممنوع أن أشاهد تلك التسجيلات، خصوصًا أنني أجنبي ولا توجد لدي صلاحية لذلك. لكن الأمر الإيجابي هو أنه بإمكان الدكتور عنان نفسه أن يستعرض تلك التسجيلات، وأن يزودني بالمعلومات التي أرغب فيها من خلال أسئلة محددة، مثل:

- ما مدة التصوير؟
- ما اتجاه التصوير؟ (هل كان مركزًا على الجناة أم موجهًا إلى المحيط والضحية؟)
- ما نوع محتوى الحوارات بين الجناة -إن وجدت-؟
- أين بدأ التصوير وأين انتهى؟ (هل كان هناك مشاهد للجناة في طريقهم إلى المحلات أم أن الكاميرا بدأت بالتصوير بمجرد نزولهم؟ ومتى توقف التصوير؟)

في الواقع -يا أعزائي- استغرب الدكتور عنان طلباتي، ورد علي ساخرًا: هل تريد أن أعرف إلى ماذا كانوا يستمعون وهم في طريقهم للسرقة؟ تفاجأ بردي على سؤاله الساخر: يا عنان، لن يضيّع المجرمون في قضيتك لحظات ما قبل السرقة وما بعدها

دون أن يتكلموا عن مشاعرهم تجاه ما سيقومون به، ولكني لا أظن أن المسجل كان يعمل!

أخبرني أنه سيعاود الاتصال بي عندما يحصل على ما أريده من طلبات غريبة كما وصفها. كانت الساعة تشير إلى الساعة 11:44، مضت ثلاث ساعات تقريبًا عندما سمعت طرقًا على باب غرفتي، جاء الدكتور عنان شخصيًا دون أن يتصل بي. لم أدرِ كيف أفسر هذا الأمر، وعندما فتحت الباب مدّ يده إليّ بملف القضية، وفيه ما طلبته مكتوبًا بخط يده. دعوته للدخول، ولكنه اعتذر بحُجة أنّ عليه العودة إلى منزله. أخبرني أن الملف سري جدًا، ولا يجوز أن أذكر عنه شيئًا في حسابات التواصل الاجتماعي الخاصة بي. ثم تركني وهو يقول بسخرية: «آمل أن تساعدك جنيتك الصغيرة الآن». كان يقصد بذلك قدرتي المشهورة على إعادة تكوين مسرح الجريمة من خلال العناصر المتاحة، التي اشتهرت بها باسم «الجنية» في أوساط الاتحاد الدولي للقانون الطبي. دعوني أخبركم ماذا حدث بعد رحيل الدكتور عنان.

تصفحت الأوراق، ورأيت ما سجله الدكتور عنان بطلب مني، سألت نفسي: (حسنًا، كم استغرق التصوير؟). وبحسب ما كتبه الدكتور عنان، فإن جميع الأسطوانات لم تزد عن ثماني دقائق، وأن التصوير بدأ من لحظة توقف السيارة أمام المحل. وكان الثلاثة ظاهرين (أما الرابع فهو من يصور ولم يشارك)، وهذا العنصر لا أستطيع أن أحكم عليه بأنه شارك في السرقة التالية أو أن مهمته كانت فقط التصوير والتوثيق؟

كان السؤال الثاني: الكاميرا التي صورت السارقين، نحو من كانت موجهة؟ لاحظ الدكتور عنان أنها كانت موجهة نحوهم بالتحديد، وأن جميع الأسطوانات كانت تتبع نفس الطريقة في التصوير على الرغم من اختلاف المواقع، حتى ظنّ أنها فيديو واحد مستنسخ لشدة تطابق إطارات التصوير! وهذا ما دفعني إلى التساؤل، فأنا المحلل أعرف أن المجرمين المنظمين لا يبذلون مثل هذه الدقة في أي نقطة من جرائمهم دون أن يكون لها معنى. تذكرت ما درسته عن المجرمين الذين يوثقون جرائمهم بالتصوير، وأدركت أن هذه الحالة تشبه التي أمامي: إن الكاميرا كانت تركز على نقطة تصوير واحدة، متجاهلة الأحداث المحيطة بالواقعة، وهذا يشير

إلى أن ما يسجل هو لجمهور سيشاهده. ولكن في الحقيقة، لم يكن الجناة يبثون مباشرة، ولم تنشر هذه المقاطع على أي منصة تواصل اجتماعي. فلا يوجد إمكانية أن يكون هناك جمهور يقدم لهم الجناة نوعًا من الترفيه حسب ما يرون في عقولهم المريضة. لذلك، فإن الاستنتاج الوحيد الممكن هو أن ما بذلوه من مجهود (سرقة سيارة وقطع مسافة تقارب ٦٠ كيلومترًا، ثم تصوير سرقة مثل هذه) كان من أجل هذا التسجيل. وأنا متأكد من ذلك، ومتأكد من أن الخط الذي أكتب به هذه السطور هو عربي، وأني على متن رحلة متجهة إلى دبي، ومن أن انتشاء المجرمين الحقيقي لم يكن في أثناء الفعل ذاته -الهجوم على المحلات- بل بعد العودة والانتشاء بإعادة مشاهدة ما صنعوه من مادة فيديو إجرامية. وما يدعم هذه النقطة هو استخدامهم الأقنعة، الذي يفسر في علم النفس بالرغبة في تجربة شخصية جديدة والابتعاد عن الشخصية الحالية. وهي نقطة نفسية قامت عليها أفلام الأبطال الخارقين مثل بروس واين رجل الأعمال الناجح، الذي بعد أن يرتدي قناعه ورداءه يصبح الرجل الوطواط الذي يطارد المجرمين في مدينة غوثام ليلًا. اتصلت بالدكتور عنان عبر الهاتف، وأخبرته بما توصلت إليه من استنتاجات تحليلية بفضل جنيتي (قدرتي التحليلية) عن مجرميه. أثار ذلك إعجابه، وسألني عن مدة إقامتي قبل العودة إلى موطني. فقلت له: ثلاثة أيام أقضي أول ساعاتها الآن. فطلب مني تسجيل جميع الاستنتاجات التحليلية، ثم إرسالها إليه رسميًا عبر بريدي الإلكتروني، ليعرضها على المدعي العام، من أجل دعوة تحديد من هو المسؤول عن هذا التنظيم، والمستحق للحد الأعلى من العقوبة القانونية.

بعد ساعة من الزمن، أنهيت ما طلبه مني، وانقضى ذلك اليوم. لتشرق شمس اليوم التالي، استيقظت على طرقات على باب غرفتي، فإذا بالدكتور عنان يظهر عليه حماس شديد. قال لي إن المدعي العام وافق على أن أكتب أسئلة التقييم النفسي للجناة بمقابل مادي، وافقت ورفضت!

وافقت على كتابة التقييم، ولكن رفضت المقابل المادي. وطلبت بدلًا منه أن أحصل على إذن لنشر النتائج مع تغيير المسميات في أحد كتبي المستقبلية، فوافق المدعي العام. صممت نموذج استجواب وتقييمًا مبنيًا على استراتيجية التساؤل.

أقصد هنا: أن يصل إلى الجناة شعوز الحسد من الشخص الذي يقيّمهم، وأن أظهر لهم أنهم يعيشون حياة مثالية، وأن ما فعلوه لا يشبه شيئًا من نظريات علم النفس الإجرامي. وأضفت إلى ذلك أسئلة تخص وجهة نظرهم عن أنفسهم، وعن رمزية الأقنعة، وعن سبب اختيار هذه المواقع غير المجدية.

وبعد عودتي إلى موطني بعدة أيام، تلقيت الإجابات. في الحقيقة، لم أكن أتوقع أن يجيبوا جميعهم عن الأسئلة كلها. لكن الواضح أن هذه الأسئلة كانت مهمة لهم لإبراز وجهة نظرهم التي -وفق رأيي الشخصي بصفتي محللًا- حاولوا أن يوصلوها إلينا عبر الفيديوهات. كانت الإجابات عن السؤال حول حياتهم التي يحسدون عليها تدور في مغزى أن هذه الحياة المثالية التي يحلم بها الكثير لا تحمل لهم المتعة، بل هي روتين ممل يشعرون فيه بالملل والتكرار. وأن كل يوم هو متوقع. وصرحوا أيضًا بأن الطرف الرابع (المصور) كان متغيرًا في كل هجوم، فكل منهم كان يأخذ دور المصور مرة، ثم يعود منفذًا للهجوم مرة أخرى، وأن الأقنعة كانت تمثل شخصيات اختاروها لأنفسهم. والآن تحليليًا، بات الأمر منطقيًا جدًا.

كتبت رسالة بريد إلكتروني جديدة إلى الدكتور عنان تحمل عنوان (مقامر)، وكان محتوى الرسالة كالآتي:

عزيزي د. عنان الموقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرسل إليك هذه الرسالة لأخبرك بالملف التحليلي النهائي للحالة التي قيمتها نفسيًا. لقد تبين لي أننا نتعامل مع جريمة سرقة غير عادية، إذ إن الجناة يتمتعون بسمات نفسية تشبه تلك التي يتمتع بها مدمنو القمار. فهم يستمتعون بالانتشاء من المخاطرة والتعرض لخطر فقدان كل شيء. لذلك، فهم لم يختاروا أهدافًا كبيرة أو مجدية، بل اكتفوا بسرقة محلات بسيطة. وأطلقوا على أنفسهم أسماء شخصيات ترتدي الأقنعة، وهذا يدل على رغبتهم في التخفي والابتعاد عن حقائق حياتهم. وأنا متأكد من أنهم كانوا يشاهدون الفيديوهات التي صوروها قبل جرائمهم وبعدها، وهذا يعطيهم انتشاءً آخر يعيد إليهم شعور المخاطرة بفقدان متع حياتهم النهارية

بعد مغامرتهم الليلية. لذلك، فهم كانوا يقودون سيارة مسروقة لمسافة تزيد على 60 كيلومترًا، في مخاطرة تشبه العمليات الانتحارية. وبالنسبة إلى القائد فالمدعو جلال كان لديه تصور واضح وشعور حقيقي بكل ما ذكرته أعلاه، واستطاع أن يؤثر في باقي المجرمين.

ولقد أرفقت مع هذه الرسالة الملف التحليلي كاملًا، مع ذكر جميع المصادر والإجابات التي تلقيتها من الجناة.

ولك مني جزيل الشكر والتقدير

(5)

ثلاث ليالٍ داخل مذبحة المرج

لقد عانيت الأرق ثلاث ليال متتالية، فلم أنم إلا خمس ساعات فقط. والباقي؟ كنت معهم في مذبحة المرج. كان عام 2019 عامًا صاخبًا بالنسبة إلي، فقد انتشر اسمي ضمن منظمة الاتحاد الدولي، وأصبحت معروفًا ببراعتي في تحليل الجنون الإجرامي والانحراف السلوكي؛ ما جعل هذا العام مختلفًا عن سابقه. وأنا أقول لكم - أيها القراء الأعزاء- إن هذه ليست سوى مقدمة لقضية تعد من أغرب خمس قضايا ستسمعون عنها في حياتكم.

في إحدى رحلاتي إلى كوريا الجنوبية لحضور مؤتمر علمي، تشرفت بالتعرف على محام مصري قدير يدعى السيد عبد العظيم. كان متخصصًا بالترافع في القضايا الجنائية، أو كما أطلق عليها في أول لقاء بيننا «كلنا ولاد كار واحد». وهذا يعني أننا نشترك في نفس المجال ونتعامل مع نفس المختلين. بعد أن عدنا إلى بلده، أرسل إليّ السيد عبد العظيم رسالة عبر الواتساب، تحمل اسم قضية كانت حديث الرأي العام آنذاك. وكان نص الرسالة كالآتي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

صديقي العزيز محمد الشيباني، أتمنى أن تكون وأسرتك بخير؟

(مذبحة المرج) قضية مروعة ومؤلمة، شغلت الرأي العام في مصر وخارجها. ابحث عنها في الإنترنت، صدقًا هذه قضية من نسج خيال كاتب، ولا يصدق أن يكون هناك بشر بنفس هذه العقلية، حتى الوحوش ليسوا كذلك!

في الحقيقة بادئ الأمر لم أصدق ما وصفه لي عبد العظيم في جريمته المروعة، وظننته يبالغ في تفاصيلها عندما قرأت رسالته وأنا في طريقي إلى المطار للسفر إلى جدة حيث سألقي محاضرة هناك. وبعد أن انتهيت من إجراءات السفر

والتفتيش، انبعث من باطن عقلي تنبيه يذكرني برسالة عبد العظيم، فسارعت إلى جهاز الحاسوب المحمول الخاص بي وفتحت صفحة محرك البحث. لم أتوقع أن أجد ما وجدته من نتائج بحث صادمة، فلم تكن من مصادر صحفية فقط، بل كان هناك تقارير مصورة لبرامج حوارية مصرية شهيرة. وهذا كان أول إشارة إلى خطر يؤكد لي أن السيد عبد العظيم لم يكن يبالغ، وأنني فعلًا أمام جريمة مرعبة.

فتحت عبر حاسوبي نوافذ كثيرة لمتابعة ما نشرته مصادر إخبارية مختلفة عن الجريمة البشعة التي هزت مصر العزيزة. ومن بين هذه المصادر صحف شهيرة جدًا مثل المصري اليوم واليوم السابع وغيرها من الصحف والمدونات. ولكن كل ما قرأته لم يستطع أن يصف رعب ما حدث في شقة في حي المرج الذي كان مسرحًا لأفكار إجرامية وعلاقات معتلة وجريمة بشعة راح ضحيتها ثلاثة أطفال صغار، لم يتجاوز أكبرهم سبع سنوات، ولم يبلغ أصغرهم عامه الأول، لقوا حتفهم على يد من كان يفترض أن يكون والدهم ووالدتهم، وبطريقة وحشية لا تليق بإنسان، وذلك في شهر رمضان المبارك!

لن أدخل في تفاصيل الجريمة البشعة التي نتحدث عنها، فهي تثير القرف والاشمئزاز. ولكن، سألخص لك ما حدث بكلمات قليلة وموضوعية. وإن كنت ترغب في معرفة مزيد عنها، فبإمكانك البحث عنها في محركات البحث.

بدأت القضية عندما تزوجت سيدة في سن اليأس تستأجر شقة في حي المرج من شاب في أوائل الثلاثينيات عاطل عن العمل ولا يملك القدرة المالية للحياة الزوجية. ولكن هذه السيدة تغاضت عن هذا الأمر، واشترت له «توك توك» ليعمل عليه أيضًا. وإلى هذا الحد لا يوجد شيء غريب أو مثير للشبهة، ويظهر لنا -إلى حدٍّ ما» علاقة زوجية عادية. ولكن الزوج استغل أنها لا تستطيع الإنجاب لدخولها في سن اليأس، وأقنعها بالموافقة على زواجه من امرأة أخرى من قريته، تكون مهمتها الوحيدة الإنجاب (هذه نقطة ستتضح لكم لاحقًا).

تزوج الشاب من زوجته الثانية، وأقامت معه ومع زوجته الأولى في نفس الشقة في حي المرج. ولم يعلم الجيران عنهم سوى أنهم في وفاق، وأن الزوجة الثانية

أنجبت ثلاثة أطفال. ولكن هذا الوفاق كان مجرد واجهة لجرائم مروعة تحدث خلف جدران الشقة. وسقطت هذه الواجهة عندما جاءت زوجة صاحب المبنى لطلب الإيجارات المتأخرة التي تخلف الزوج عن جمعها بسبب مرضه. ففوجئت برؤية امرأة شابة في الثلاثين من عمرها مشوهة العينين، لا تتذكر أنها رأتها من قبل لأن التي تعرفها كانت تبصر وحسناء الملامح. وعندما سألتها -بدافع الفضول- عن سبب إصابتها، طلبت منها طلبًا صادمًا وهو أن تخرجها من هناك، وستخبرها بكل شيء. ولكن ما سمعته زوجة المالك كان أبشع مما تخيلت، فأسرعت إلى الشرطة لإبلاغهم عن جرائم قتل وتعذيب بالأسيد وعلاقات مشتبه فيها.

توجهت الشرطة مباشرة بمذكرة من النيابة لتفتيش الشقة والتحقق من تفاصيل البلاغ، ولما وصلت إلى المكان، لم تجد أثرًا للأطفال الثلاثة، ولكنها ألقت القبض على الزوج وزوجته الأولى، وصادرت كل ما كان في الشقة. ومن بين المضبوطات ذاكرة رقمية تحمل مشاهد رعب لا توصف، فقد كان الأب وزوجته الثانية (الأم) يوثقان جرائمهما بالفيديو، ويصوران علاقتهما الحميمية بعد قتل أحد أبنائهما في نهار رمضان!

أعلم عزيزي القارئ وعزيزتي القارئة أن ما قرأتموه في السطور السابقة صادم ومرعب ومثير للاشمئزاز، لذا لن أخوض في التفاصيل أكثر، وسأذكر ما اعترف به المجرمون حسب المصادر الصحفية المصرية.

حسب التحقيقات، إن الثلاثي المجرم وافقوا على قتل الأطفال دون أي منطق أو رحمة أو إنسانية. ومن المثير للصدمة أن الزوجة الثانية كانت موافقة على تشويه عينيها بالأسيد. وهذا الأمر يثير التساؤل عن دوافعها. هل كانت تتبع طقوسًا سحرية تتطلب التضحية بالأبرياء وممارسة الفعل المحرم في نهار رمضان كتدنيس شيطاني؟ أم كان هناك سبب آخر لا نعرفه؟

من المؤسف أن المصادر التي نقلت التحقيقات لم تتطرق إلى تفاصيل أو اعترافات كافية تساعدني على وضع تحليل واضح لهذه الجريمة. ولكن هناك اعتراف واحد لافت للنظر من الزوجة الثانية، عندما سُئلت عن سبب مشاركتها في هذه الجرائم،

وعن سبب عدم اللجوء إلى أهلها في القرية أو إلى الجيران المجاورين ما إن عرفت بالخطة. فبررت ذلك بقولها: «نار زوجي المعتل ولا جنة إنقاذ أهلي»، وقالت إنها تحبه على الرغم من كل شيء: «هو حبيبي».

اعترف الجاني الأول (الزوج) أن الفكرة المعتلة بدأت بعدما لاحظت الزوجة الأولى أنه لم ينفذ ما وعدها به: أن تكون الزوجة الثانية للإنجاب فقط، وأنه مال بشغف لشباب زوجته الثانية، وأن علاقتها هي معه قد تحولت إلى علاقة صورية، الأمر الذي دفعها إلى طلب الطلاق منه وأن يأخذ زوجته الثانية وأطفالها إلى مكان آخر، وأن يسلم لها مصدر دخله «التوك توك»؛ ما جعل المجرم يحاول كسب رضاها عن طريق هذا النوع من الأفعال المجرمة والمعتلة ويتخلص من أطفاله.

استدلت الشرطة على الأماكن التي كان يتخلص فيها الأب المجرم من جثث أطفاله عند مصارف المياه والصرف الصحي.

لم أنتبه إلى مرور الوقت وأنا أقرأ تفاصيل هذه المذبحة المروعة متنقلًا بين مصدر وآخر، حتى اكتشفت أن شمس الصباح أشرقت. فإذا بي قد أمضيت ثلاث ساعات على الأقل في هذا البحث المرير. كان عليّ أن أستريح قليلًا قبل محاضرتي التي ستبدأ بعد ساعات، لكن السيد عبد العظيم كان على حق فعندما وضعت رأسي على الوسادة اجتاحتني مشاعر من القرف والخوف وسمعت نبضات قلبي تتسارع، وقد تخيّلت قسرًا ما حدث في مسرح الجريمة. وهكذا بقيت مدة طويلة حتى غلبني النوم من شدة التعب. لكن هذا لم يستمر طويلًا، إذ استيقظت من كابوس مرعب لا أتذكر منه سوى مشهد طفل يطفو على الماء. وهذه هي حالتي الآن وأنا أكتب لكم هذه السطور.

بعد أن استيقظت من حلمي المرعب، لم أستطع العودة إلى النوم مجددًا. فقررت أن أشغل نفسي بإعداد محاضرتي راجيًا أن أنسى ولو لبعض الوقت رهبة تلك المذبحة. وفعلًا، نجحت في ذلك لمدة عشر ساعات تقريبًا، حتى عدت من محاضرتي. حزمت حقائبي للذهاب إلى المطار والعودة إلى منزلي. وفي طريقي، صادفت طفلًا رضيعًا مع والديه في المصعد. كانوا يبدون كأي عائلة سعيدة، يملؤهم

الحب والحنان. فسألت نفسي: لماذا لم يكن قاتلو مذبحة المرج بهذه الإنسانية؟ لماذا لم يشفق أحدهم على الأقل على الأطفال الذين قتلوهم؟

حسب ما أعرفه من دراستي أن هناك أنماطًا إجرامية لبعض الأزواج الذين يعانون انحرافات سلوكية تبعدهم عن العلاقة الطبيعية بين الزوجين، التي يستغلها الجاني لتحقيق أهدافه، مثل: مدمر الزواج الحاقد، الذي يقتل طفله ليعذب الطرف الثاني بدافع الانتقام منه. لكن ما شهدته في مذبحة المرج لم يسبق لي أن رأيته من قبل. فهذا التكوين المعتل المعقد وغير المنطقي للعلاقة بين الجاني وشركائه يثير تساؤلات كثيرة. هل هم عصابة؟ أم ثلاثي إجرامي؟ أم ثنائي في داخل ثنائي والعنصر الثابت هو الجاني الذكر؟

لم تهدأ تساؤلاتي حتى وأنا في صالة انتظار المطار أو خلال إنهاء إجراءات السفر. كنت أشعر أن هناك شيئًا مهمًا يفوتني كمحلل، شيئًا غير منطقي تحليليًا بشكل ظاهري، لكنه يربط بين هذه العلاقة الثلاثية المعتلة. فعدت إلى منزلي، وأنا لست كما كنت قبل هذه القضية، فقد كانت شخصيتي القديمة تعمل حتى في غرفة النوم! وبدأت بتسجيل عناصر القضية:

- زوجتان.
- زوج.
- إغراق الأطفال وهم نائمون.
- استخدام الأسيد بعد ذلك لإذابة جثث الأطفال.
- تصوير جرائم القتل.
- تصوير العلاقة الحميمية في نهار رمضان.
- تشويه الزوجة الثانية.

كل عنصر كتبته في ورقة، وكل ورقة وضعتها في مربع خاص بها على جدار مكتبي مخبرًا نفسي أن الأمر أشبه بلعبة تكوين صورة من قطع متناثرة أكثر من

سلوك إجرامي.

لذلك قررت أن أفصل العلاقات بعضها عن بعض:

علاقة الزوج بالزوجة الأولى.

علاقة الزوج بالزوجة الثانية.

علاقة الزوجة الأولى بالزوجة الثانية.

بدأت أرى الأمر بمنطقية أكثر، عندما حاولت فهم التداخلات بين العلاقات الثلاث. فكل تقاطع أو تداخل يحمل نمطًا يوضح ما حدث. ولم أنتبه إلى مرور الوقت حتى أشرقت شمس يوم جديد، ولكنها أشرقت بعدما وصلت إلى وصف للعلاقات الثلاثة كالآتي: .

الزوجة الأولى كانت تستغل المال والمأوى لجذب الزوج وإثبات أهميتها له، لأنها كانت متقدمة في السن، والزوج كان يعاملها بنفس الرابط، وهنا يظهر الجسر إلى العلاقة الثانية.

علاقة الزوج بالزوجة الثانية: كان للزوج علاقة قديمة بالزوجة الثانية، واستخدم حجة الإنجاب لتبرير زواجه منها. لكن هذه العلاقة تحولت إلى عشق متبادل مع مرور الوقت؛ ما أغضب الزوجة الأولى. أما الزوجة الثانية، فكانت تعاني ظروفًا عائلية صعبة، وكانت تشعر أن نار الزوج لن تكون أسوأ من نعيم الأسرة. ولم تبالِ بأطفالها، فربما ظنت أنها تستطيع إنجاب غيرهم خصوصًا أنها كانت تلد بفترات متقاربة. ولإثبات حبها المريض له، وافقت على ارتكاب جرائم شنيعة، مثل: قتل أطفالها، وإذابتهم في الأسيد، وممارسة العلاقة الحميمية في نهار رمضان. وهذا ما يشكل جسرًا يقودني إلى العلاقة الثالثة.

في هذه العلاقة، كانت الزوجة الثانية -الجانية الأولى- تسعى لإرضاء الزوجة الأولى -الجانية الثانية- لكي تحافظ على استمرارية زواجها من الزوج، ولذا ضحت بأطفالها حتى تخفف من غضب الزوجة الأولى. لكن سؤالًا شغل ذهني: لماذا شوّهت عينا الزوجة الثانية؟ هذا السؤال أخذ مني ساعات، حتى تبلورت في رأسي إجابة

منطقية، وأنا أقود سيارتي في طريقي إلى صديق. فقد اعتقدت أن الزوجة الأولى كانت تخشى شباب الزوجة الثانية، وترى أنها تشكل تهديدًا مستمرًا لها، وأنها قد تحمل من الزوج في أي وقت. لذلك شوهت وجهها خصوصًا عينيها، ليبغضها الزوج، ولتضمن عدم حدوث حمل في المستقبل.

وصلت إلى منزل صديقي مصابًا بالرعب. كيف يمكن أن توجد هذه العلاقات المريضة؟ كيف يمكن أن يشكلوا مثلثًا إجراميًا كل ضلع فيه يستند إجراميًا إلى الآخر؟ كيف اتفقوا على هذا التناغم المخيف؟

في هذا المثلث، كان كل منهم يبرر رغبته المنحرفة بالبقاء مع الآخرين، تبريرًا أنانيًا ومستبدًا. وكانوا يوثقون ذلك في فيديوهات تضمن استمرارية هذه العلاقة المعتلة..

لكن لا توجد جريمة كاملة، هكذا عشت ثلاث ليالٍ في عقول مرتكبي مذبحة المرج.

Telegram:@mbooks90

الخاتمة

وقفت الآن عربة التحليل في آخر محطة لها في هذا الكتاب، لا أدري متى أعود لأنطلق بها من جديد.

ولكن السلوك الإجرامي لن يختفي فجأة، حتى وأنتم تقرؤون هذه السطور هناك مجرم في مكان ما في العالم يرتكب جريمة، قد يكون بيني وبينه لقاء في يوم ما.

صمت الشر عن الحديث مؤقتًا.. أراكم في كتاب آخر.